رواد العلم والتقنية

مطبوعات المؤسسة

(٢)

عمل القلب
الفريضة الغائبة

د. عبدالله بن صالح الكنهل

عمل القلب
الفريضة الغائبة

تأليف
د. عبدالله بن صالح الكنهل

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الرابعة
١٤٣٨هـ/٢٠١٧م

ح عبدالله صالح الكنهل، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر.
الكنهل، عبدالله صالح.
عمل القلب الفريضة الغائبة/ عبدالله الكنهل
الرياض، ١٤٣٢هـ.
١٢٣ صفحة، ١٤×٢٠
ردمك: ٥-٧٧٦-٧٥-٩٩٦٠
١- الطاعة ٢. المعاصي والذنوب أ- العنوان
ديوي ١, ٢١٢ ٣٠٦٥/ ١٤٣٢هـ

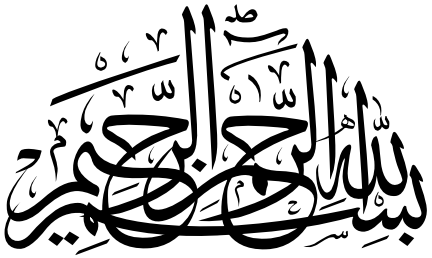

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فلا يخفى على الناظر ما آلت إليه أمة الإسلام اليوم من ضعف في الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ علماً وعملاً، وما نتج عن ذلك من تخلف في ميادين الحياة الدنيا، وهوان على أمم الأرض.

ولذلك الضعف والتخلف أسباب عدة. ولا شك أن معرفة السبب الرئيس والداء العضال هو الطريق إلى الخروج بالأمة مما هي فيه.

وقد جنح أقوام إلى التضخيم والتهويل من مخططات الأعداء، وما يمكرونه بالليل والنهار من أجل صد الأمة عن سبيل الله وإدخالها في عوج المسالك. وخُيِّل لبعض من الناس أن الأمة باتت في مهبِّ عاصفة هوجاء، تتقاذفها أهواء الأعداء، فصاروا يرقبون من خلال وسائل الإعلام ما يريد الأعداء بهم، ليرسموا من خلال ذلك صورة متشائمة لمستقبلهم، مما نتج عنه الإحباط والقعود، والعزوف عن العمل المثمر، والإصلاح المنشود.

ومع ما لكيد الأعداء من أثر لا ينكر، إلا أن الموفقين من هذه الأمة يعزون السبب الرئيس إلى الأدواء الداخلية، التي استشرت في جسد الأمة، فأبعدتها عن حقيقة الدين، وأسباب النصر والتمكين.

ولا ريب أن صلاح الأمة في صلاح أفرادها، ولا ريب أن صلاح الأفراد في قيامهم بما أوجب الله عليهم ظاهراً وباطناً.

وقد بين الله عز وجل أن كيد الأعداء ما كان ليضر المسلمين لو قاموا بما يجب لله في قلوبهم: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ آل عمران: ١٢٠.

والصبر في أصله عمل قلبي، وأما التقوى فأساسها تقوى القلوب كما قال رسول الله ﷺ: **(التقوى ها هنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات)**[١].

وأخبر جل وعلا أن الذين ينتصر بهم الدين هم أصحاب الأعمال القلبية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ المائدة: ٥٤.

وكأن النبي ﷺ يصف واقع الأمة اليوم ويبين داءها حين يقول ﷺ: **(يوشك أن تداعى عليكم الأمم، كما تداعى الأكلة على قصعتها)**. فقال قائل: ومن قلة يومئذ؟ قال: **(بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن)**، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: **(حُبّ الدنيا وكراهية الموت)**[٢].

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٣٩٧) وأبو داود (٤٢٩٧)، وصححه الألباني.

والوهن هو الضعف، والمراد بقوله: وما الوهن؟ أي ما موجبه وما سببه[١].

إن المخرج من هذه الغثائية هو العلم النافع والعمل الصالح، تصحيحاً للاعتقاد، وترسيخاً للإيمان، وتوجيهاً للقلوب نحو بارئها. فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وقد ورد عنه ﷺ: **(أن صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل)**[٢].

وإذا كان سبيل فلاح الأمة مرهوناً بذلك، فإن ذلك أيضاً هو سبيل فلاح أفرادها في الدنيا والآخرة.

والعلم والاعتقاد الصحيح لا بدَّ أن ينضمَّ إليهما عمل القلب والجوارح، وذلك أن «العلم بالشيء غير وجوده والاتصاف به، فكم من إنسان يعلم ويعرف المحبة وأحكامها وجميع لوازمها، ولكن قلبه خال منها، وكم من عبد يعرف ويعترف بقضاء الله وقدره وحسن كفايته، ولكن إذا وقع المقدور بخلاف ما يحبّ، رأيته مضطرباً لا طمأنينة عنده ولا ثقة ولا سكون، وإلا فمن وصلت إلى قلبه معرفة الله حقيقة، اطمأن إلى كفاية الله، واستسلم لحكمه حيثما تنقلت به الأحوال»[٣]، وقد دلَّت على ذلك سورة العصر.

وما يعيشه كثير من الناس اليوم من قلق وآلام نفسية، سببه انصراف القلوب

(١) انظر: عون المعبود (١١/ ٤٠٥).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٤٢٧).

(٣) مجموع الفوائد للشيخ عبد الرحمن بن سعدي (ص٣١، ٣٢).

عن وظائفها التي خلقت لها، فاصطلت بنار هموم الدنيا، ولم تطعم برد اليقين والمحبة والرضا والتوكل .

ومن لم يدخل تلك الجنة العاجلة في الدنيا يخشى عليه ألا يدخل الجنة الآجلة في الآخرة... ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ الشعراء: ٨٨ - ٨٩.

وهذه الغفلة عن أعمال القلوب مخالفة لطريق نبينا ﷺ يقول ابن رجب: «فأفضل الناس من سلك طريق النبي ﷺ وخواص أصحابه في الاقتصاد في العبادة البدنية، والاجتهاد في الأحوال القلبية، فإن سفر الآخرة يقطع بسير القلوب لا بسير الأبدان»[(١)].

(ومن سار على طريق الرسول ﷺ وإن اقتصد فإنه يسبق من سار على غير طريقه وإن اجتهد)[(٢)]

وبهذا وغيره مما سيأتي يتبين أهمية الكتابة في موضوع: «أعمال القلوب».

ومسيس الحاجة إلى التذكير بعظم قدرها.

وقد جعلت هذا الكتاب بعنوان: «عمل القلب الفريضة الغائبة»[(٣)].

---

(١) المحجة في سير الدلجة (ص ٥٦) وانظر لطائف المعارف (ص ٤٤٨،٤٤٩).

(٢) لطائف المعارف(ص ٤٤٩).

(٣) وصف أعمال القلوب (بالغيبة) من ناحية ذاتها فهي لا ترى بالعيون، قال في لسان العرب: (الغيب كل ما غاب عنك ... والغيب أيضاً ما غاب عن العيون وإن كان محصلاً في القلوب) (٦/ ٣٣٢٢) .

وسيكون الكلام في هذا الموضوع ضمن ثلاثة فصول وخاتمة.

الفصل الأول: الطاعات والمعاصي القلبية.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الطاعات القلبية.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حكمها وأمثلتها.

المطلب الثاني: درجات الناس في القيام بها.

المطلب الثالث: واقع كثير من الناس تجاهها.

المبحث الثاني: المعاصي القلبية.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أقسامها وأمثلتها.

المطلب الثاني: واقع كثير من الناس تجاهها.

المبحث الثالث: تأثير التفريط في القيام بالطاعات القلبية في التلبس بمعاصيها.

الفصل الثاني: عظم قدر الأعمال القلبية.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أعمال القلوب ومراتب الدين.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أعمال القلوب والإحسان.

المطلب الثاني: أعمال القلوب والإيمان.

المطلب الثالث: أعمال القلوب والإسلام.

وكذلك من ناحية تذكرها عند المحاسبة والتوبة، فكثيراً ما تغيب عن الأذهان .

المبحث الثاني: أعمال القلوب ومقاصد الشريعة.

المبحث الثالث: أهمية العناية بالقلب تحلية وتخلية.

المبحث الرابع: الارتباط بين الظاهر والباطن.

الفصل الثالث: القيام بالأعمال القلبية علماً وعملاً.

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: حكم تعلم عمل القلب.

المبحث الثاني: كيفية القيام بالأعمال القلبية.

المبحث الثالث: نبذة في وسائل إصلاح القلب.

المبحث الرابع: وجوب لزوم السنة في طريق إصلاح القلب.

المبحث الخامس: إنكار منكرات القلوب وخطأ التثبيط عن الخير حذر الرياء.

الخاتمة.

وفي ختام هذه المقدمة، أسأل الله أن ينفع بمحتوى هذا الكتاب، الذي هو اقتباس من مشكاة الكتاب والسنة، وما سطره علماء الأمة، وليس لي فيه إلا الجمع والترتيب والتنسيق، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه
عبد الله بن صالح الكنهل
جامعة الإمام- كلية الشريعة
البريد الإلكتروني: Alkenhel@hotmail.com

الفصل الأول

الطاعات والمعاصي القلبية

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: الطاعات القلبية.
- المبحث الثاني: المعاصي القلبية.
- المبحث الثالث: تأثير التفريط في القيام بالطاعات القلبية في التلبس بمعاصيها

المبحث الأول

الطاعات القلبية

الحديث في الطاعات القلبية سيكون من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول

حكمها وأمثلتها

الطاعات القلبية منها ما هو واجب باتفاق العلماء، ومنها ما هو مستحب، ومنها ما اختلف في وجوبه.

ويبين شيخ الإسلام ابن تيمية بعض ما اتفق على وجوبه، فيقول: «أعمال القلوب هي من أصول الإيمان، وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل عليه، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له ،وما يتبع ذلك، فهذه الأعمال جميعاً واجبة على جميع الخلق باتفاق أئمة الدين»[(١)].

ويصف رحمه الله الظن بأنها من المستحبات بأنه ضلال مبين، فيقول: «وتظن طائفة أن التوكل إنما هو من مقامات الخاصة، المتقربين إلى الله بالنوافل، وكذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها، من الحب والرجاء والخوف والشكر ونحوه، وهذا ضلال مبين، بل جميع هذه الأمور فرض

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٢٥).

على الأعيان، باتفاق أهل الإيمان»[1].

وقد حكى ابن القيم اتفاق الأمة على وجوب الأعمال السابقة من حيث الجملة، وزاد عليها الصدق، والإنابة والنية في العبادة، والنصح في العبودية. ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان واجب مستحق، وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب، وهو مرتبة المقربين**»[2].

وقد يقال: فما الذي يميز الواجب المستحق من العمل القلبي عن الكمال المستحب؟

والجواب: عن ذلك يتضح بما ذكره ابن رجب في شأن محبة الله ﷻ وهي رأس الأعمال القلبية، حيث جعلها على درجتين:

الأولى: فرض لازم، وهي المحبة التي توجب للعبد محبة ما فرض عليه، وبغض ما حرم عليه، ومحبة رسوله، وتقديم محبته على النفوس والأهلين، ومحبة ما جاء به، ومحبة سائر الرسل والأنبياء والصالحين، وبغض الكفار والفجار في الله، ومقتضى تلك المحبة الواجبة أن يفعل العبد الواجبات، ويترك المحرمات. ومتى أخل بشيء من ذلك فمحبته لربه غير تامة، فعليه المبادرة للتوبة، والاجتهاد في تكميل المحبة.

(١) مختصر الفتاوى المصرية ص (١٢٤).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٨٥، ٨٦)، وسيأتي كلام لابن تيمية فيه تقسيم تلك الأعمال إلى فرض ومستحب ص١٧.

الثانية: درجة السابقين المقربين، وهي أن ترتقي المحبة إلى محبة ما يحبه الله من النوافل، وكراهة ما يكرهه من دقائق المكروهات، والرضا بما يقدره مما يؤلم النفس من المصائب[1].

ويذكر ابن القيم أن هناك أعمالاً اختلف في وجوبها، مثل الرضا بالقضاء الكوني الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره، كالمرض، والفقر وأذى الخلق له، مع الاتفاق على وجوب الرضا بالله ربـًا وإلهـًا، والرضا بأمره الديني.

وكذلك الخشوع في الصلاة، وهل تلزم إعادة الصلاة من أخل به؟ مع الاتفاق على أنه لا يثاب على شيء من صلاته إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه[2].

وما قرره أولئك الأئمة من وجوب تلك الأعمال القلبية، هو ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، من الأمر بتلك الأعمال المقتضي وجوبها.

ومن نصوص القرآن في هذا قوله سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ المائدة: ٢٣

(١) انظر: استنشاق نسيم الأنس ص (٣٠-٣٥)، اختيار الأولى ص (١٢٦-١٢٧).

(٢) انظر: مدارج السالكين (١/ ٨٦، ٨٧)، وفيه ذكر الأقوال والأدلة لكلتا المسألتين، وانظر: بحثـًا مهمـًا في أدلة وجوب الخشوع في مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٥٣، ٥٧٢)، طرح التثريب (٢/ ٢٣٧٢)، وتفصيلاً في مسألة الرضا في تهذيب مدارج السالكين ص(٣٦٨، ٣٧٢) ومختصر الفتاوى المصرية ص (٩٦)؛ ومجموع الفوائد لابن سعدي ص(٤٠-٤٢).

وقوله: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥

وقوله: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ الزمر: ٥٤ ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ البقرة: ١٥٢ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران: ٢٠٠

وكذلك جعلها من الإيمان الواجب من خلال أسلوب الشرط كما في الآيتين الأوليين.

ومن نصوص السنة في الأعمال القلبية قوله ﷺ: **(استحيوا من الله حق الحياء)**[1] يفيد وجوب الحياء من الله، وقوله: **(اتق الله حيثما كنت)**[2] يفيد وجوب المراقبة. ومن نصوصها في جعل بعضها من الإيمان الواجب قوله: **(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)**[3].

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧١) والترمذي (٢٤٥٨) وحسنه الألباني.
(٢) أخرجه أحمد (٢١٣٥٤) والترمذي (١٩٨٧)، وصححه الألباني.
(٣) أخرجه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤).

المطلب الثاني

درجات الناس في القيام بها

يقول الله عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ فاطر: ٣٢.

وهذه الثلاث المذكورة في الآية هي درجات العباد في أعمال القلوب والجوارح.

يقول ابن تيمية: «والناس في - أعمال القلوب - على ثلاث درجات كما هم في أعمال الأبدان :

ظالم لنفسه: وهو العاصي بترك مأمور أو فعل محظور.

مقتصد: مؤدٍ للواجبات وتارك للمحرمات.

سابق: المتقرب بما يقدر عليه من فعل واجب ومستحب والتارك للمحرم والمكروه»[1].

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٠/ ٦).

المطلب الثالث

واقع كثير من الناس تجاهها

الناظر في واقع كثير من الناس يجد غفلة عن تلك الفروض العينية من الأعمال القلبية، وفي هذا يقول ابن القيم: «فواجبات القلوب أشد وجوباً من واجبات الأبدان وآكد منها، وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس، بل هي من الفضائل والمستحبات.

فتراه يتحرج من ترك فرض أو ترك واجب من واجبات البدن، وقد ترك ما هو أهم منه من واجبات القلوب وأفرضها. ويتحرج من فعل أدنى المحرمات، وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشد تحريماً وأعظم إثما»[(١)].

ومن آثار تلك الغفلة أن غالب الناس لا يستحضرون تقصيرهم في تلك الواجبات عند التوبة.

يقول ابن تيمية: «وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها، أو بعض الظلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تركه من المأمور الذي يجب لله عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضرراً عليه مما فعله من بعض الفواحش.

فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حقاً أعظم نفعاً من ترك بعض الذنوب الظاهرة، كحب الله ورسوله، فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية»[(٢)].

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٨٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٢٩).

المبحث الثاني

المعاصي القلبية

كما أن المعاصي تكتسب بالجوارح، فإنها تكتسب بالقلب أيضاً، وهي من باطن الإثم الذي أمرنا ربنا بتركه، فقال: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ...﴾ الأنعام: ١٢٠.

وسيكون الكلام في تلك المعاصي بذكر أقسامها، وأمثلتها، وواقع كثير من الناس تجاهها.

المطلب الأول

أقسام المعاصي القلبية وأمثلتها

ذكر ابن القيم أن المحرمات القلبية ضربان:

الأول: ما يكون كفراً: كالشك، والنفاق، والشرك، وتوابعها.

الثاني: ما يكون معصية دون الكفر، وهي نوعان:

(١) **كبائر**: ومثل لها ابن القيم بالرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم.

ثم قال: «وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنا وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها، والتوبة منها، وإلا فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن... وهذه الأمور قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر بحسب قوتها وغلظها وخفتها ودقتها»[1].

و يشهد لما ذكره ابن القيم من أن معاصي القلوب في الجملة أعظم من المعاصي الظاهرة، قوله ﷺ: **(لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك : العُجب العُجب)**[2].

وقوله لأصحابه وأمته من بعدهم: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر: الرياء)[3].

(٢) صغائر: ومثل لها ابن القيم بشهوة المحرمات وتمنيها.

فقال: «ومن الصغائر أيضاً شهوة المحرمات وتمنيها، وتتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهى، فشهوة الكفر والشرك كفر، وشهوة البدعة فسق، وشهوة الكبائر: معصية، فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب، وإن تركها عجزاً بعد بذله مقدوره في تحصيلها، استحق عقوبة الفاعل...»[4].

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٨).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦٨٦٨)، وهو في صحيح الجامع للألباني (٥٣٠٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠) وهو في السلسلة الصحيحة للألباني (٩٥١).

(٤) مدارج السالكين (١/ ١١٤).

وما سبق تقريره من تحريم هذه الأعمال قد دلت عليه أدلة الكتاب والسنة.

فمن الآيات القرآنية الدالة على بعض المحرمات القلبية، قوله سبحانه:

﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ الأعراف: ٩٩.

وقوله: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ الحجر: ٥٦

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يوسف: ٨٧.

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ الحجرات: ١٢.

وقوله: ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ آل عمران: ١٥٤ .

ومن الأحاديث النبوية في هذا قوله ﷺ: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)[1]. وقوله ﷺ: (ثلاثة لا تسأل عنهم: رجل ينازع الله إزاره، ورجل ينازع الله رداءه، فإن رداءه الكبرياء وإزاره العز، ورجل في شك من أمر الله، والقنوط من رحمة الله)[2]. وقوله ﷺ: **(بحسب أمرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)**[3]. وقوله ﷺ: **(الكبائر الشرك بالله والإياس من روح الله والقنوط من رحمة الله)**[4].

(١) أخرجه مسلم (١٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٩٤٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٧٨٤)، والبيهقي في الشعب (١٠١٩)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٥١).

و قد ورد في ذم الرياء والوعيد على أهله عدة أحاديث ومن ذلك حديث أبي هريرة في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة[1].

المطلب الثاني

واقع كثير من الناس تجاهها

كثير من الناس يغفلون عن تلك المحرمات القلبية علماً وعملاً ومن ثم لا يستحضرونها عند تجديد التوبة من الذنوب.

وقد نبه على هذا أطباء القلوب من علماء الأمة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «واعلم أن كثيراً من الناس يسبق إلى ذهنه من ذكر الذنوب: الزنا والسرقة ونحو ذلك، فيستعظم أن كريماً يفعل ذلك. ولا يعلم هذا المسكين أن أكثر عقلاء بني آدم لا يسرقون، بل ولا يزنون، حتى في جاهليتهم وكفرهم.. ولكن الذنوب تتنوع، وهي كثيرة الشعب، كالتي من باب الضلال في الإيمان، والبدع التي هي من جنس العلو في الأرض بالفساد، والفخر والخيلاء والحسد والكبر والرياء، التي هي في الناس الذين هم متفقون على ترك الفواحش.

وكذلك الذنوب التي هي ترك الواجبات: كالإخلاص، والتوكل على الله، ورجاء رحمته، وخوف عذابه، والصبر على بلائه، والصبر على حكمه

(١) سيأتي ذكره ص٥٢.

والتسليم لأمره، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوه»[1].

ونتيجة لهذا الجهل وتلك الغفلة، قد يتلطخ القلب بأدناس المعاصي، وصاحبه سادر.

يقول ابن القيم: «وأكثر المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات في كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها، ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب، ليتوبوا منها!!!. فعندهم من الإزراء على أهل الكبائر، واحتقارهم، وصولة طاعاتهم، ومنتهم على الخلق بلسان الحال، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم، اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم، وتوابع ذلك ما هو أبغض إلى الله وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك»[2].

وإنه ليخشى أن يكون للغافل عن المعاصي القلبية نصيب من قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴿٤٨﴾﴾ الزمر: ٤٧ - ٤٨.

وتلك المعاصي تمرض القلب، «ومرض القلب وشفاؤه أعظم من مرض الجسم وشفائه»[3].

يقول بن القيم: **(وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه أضعاف ما يذكره.**

(١) مختصر الفتاوى المصرية: ص: (١٠٨ـ١٠٩).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٨٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٠).

وفي الدعاء المشهور:(**اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم واستغفرك لما لا أعلم**)[1].

ومن الدعاء المشروع عقب التشهد الأخير:(**اللهم اغفرلي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت**)[2].

وبتذكر ذلك المعنى يتحقق العبد من نفسه الظلم الكثير، كما في الدعاء الذي علمه نبينا ﷺ صديق الأمة:(**اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**)[3].

(١) بدائع التفسير الجامع لما فسره بن القيم ٣/ ٤٣٢ نقلا عن بدائع الفوائد ٢/ ١٩٨-٢٤٧.
(٢) مسلم ١/ ٥٣٤.
(٣) البخاري ٨/ ١٦٨، ومسلم ٤/ ٢٠٧٨.

المبحث الثالث

تأثير التفريط في القيام بالطاعات القلبية

في التلبس بمعاصيها

تقدم في المطلبين السابقين أن أعمال القلوب منها: الطاعات والمعاصي.

والواقع أن هناك أثراً للتفريط في القيام بالطاعات القلبية في التلبس بمعاصيها.

فالقلب وعاء إن عمر بالإيمان واليقين ومحبة الله جل وعلا والإخلاص له وخشيته والرجاء له ونحو ذلك من طاعات القلوب، فإنه سيتخلص مما يضاد ذلك من المعاصي القلبية، كالشك، وتعلق القلب بغير الله، والرياء، ونحوها.

وإن حصل تفريط في القيام بتلك الفرائض القلبية نتج من ذلك التلبس بمعاصي القلب.

يبين هذه الحقيقة ابن القيم حيث يقول: «فوظيفة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الفاتحة: ٥ على القلب قبل الجوارح، فإذا جهلها وترك القيام بها، امتلئ بأضدادها ولا بد، وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها»[1].

ومما يوضح ذلك أن محبة الله وخشيته والإنابة إليه والإخلاص كلها من عبادات القلب، والتعلق القلبي بغير الله من خلال العشق المحرم من المعاصي.

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٨).

يقول ابن تيمية: «وما يبتلى بالعشق أحد إلا لنقص توحيده وإيمانه، وإلا فالقلب المنيب إلى الله، الخائف منه، فيه صارفان يصرفانه عن العشق: أحدهما إنابته إلى الله، ومحبته له، فإن ذلك ألذ وأطيب من كل شيء، فلا تبقى مع محبة الله محبة مخلوق تزاحمه.

الثاني: خوفه من الله، فإن الخوف المضاد للعشق يصرفه»[(١)].

وذكر ابن القيم نحواً مما ذكره شيخه، واستدل عليه بقوله تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ يوسف: ٢٤، فالآية تفيد: «أن الإخلاص سبب لدفع العشق، وما يترتب عليه من السوء والفحشاء، التي هي ثمرته ونتيجته، فصرف المسبَّب صرف لسببه»[(٢)].

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٣٥ـ١٣٦).

(٢) زاد المعاد (٤/ ٢٦٨). وانظر: الاستدلال بالآية على نحو ذلك في مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٨). قال الشوكاني: «قرأ ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو: (المخلصين) بكسر اللام، وقرأ الآخرون بفتحها، والمعنى على القراءة الأولى: أن يوسف عليه السلام كان ممن أخلص طاعته لله، وعلى القراءة الثانية: أنه كان ممن استخلصه الله للرسالة». فتح القدير ٣/ ١٨.

الفصل الثاني

عظم قدر الأعمال القلبية

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: أعمال القلوب ومراتب الدين.
- المبحث الثاني: أعمال القلوب ومقاصد الشريعة.
- المبحث الثالث: أهمية العناية بالقلب تحلية وتخلية.
- المبحث الرابع: الارتباط بين الظاهر والباطن.

المبحث الأول

أعمال القلوب ومراتب الدين

مراتب الدين هي: الإحسان، والإيمان، والإسلام. وللأعمال القلبية شأن عظيم في هذه المراتب الثلاث.

المطلب الأول

أعمال القلوب والإحسان

الإحسان: هو: أعلى مراتب الدين، فهو: «لب الإيمان وروحه وكماله»[(١)]، وقد فسره النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور بأنه: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإن يراك)[(٢)]. وفيه إشارة إلى أن الإحسان هو: «كمال الحضور مع الله عز وجل، ومراقبته، الجامعة لخشيته ومحبته ومعرفته والإنابة إليه والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان»[(٣)].

وقد جاء في حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال في الإحسان: (أن تخشى الله كأنك تراه)[(٤)].

وبناء على ذلك فالإحسان أساسه عمل قلبي يقوم على استحضار عظمة

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠) ومسلم (٨).

(٣) المصدر السابق. وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٢٦).

(٤) عند مسلم برقم (١٠).

الله ومراقبته مما يوجب خشيته، والقيام بحقه.

يقول: ابن القيم: «الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي، فإن من عبدالله كأنه يراه، لم يكن كذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده»[1].

المطلب الثاني

أعمال القلوب والإيمان

قرر أهل السنة أن الإيمان قول وعمل. ومن العمل الداخل في الإيمان عمل القلب.

يقول ابن تيمية: «أجمع السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ومعنى ذلك أنه قول وعمل القلب، ثم قول اللسان وعمل الجوارح»[2].

فقول القلب: هو تصديقه وإقراره ومعرفته[3].

وتشمل: اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وأما عمل القلب فقد تقدم الكلام عليه.

يقول شيخ الإسلام: «دخول أعمال القلب في الإيمان أولى من دخول

(١) الجواب الكافي ص (١٢١).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٧٢).
(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ١٨٦)، إغاثة اللهفان (١/ ٨).

أعمال الجوارح باتفاق الطوائف كلها»[1].

ويقول: «الدين القائم بالقلب من الإيمان علماً وحالاً هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع، وهي كمال الإيمان، فالدين أول ما يبنى من أصوله ويكمل بفروعه»[2]. ويقول: «الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولا بد فيه من شيئين: تصديق القلب وإقراره ومعرفته ويقال لهذا: قول القلب. قال الجنيد بن محمد: التوحيد قول القلب، والتوكل عمل القلب، فلا بد فيه من قول القلب وعمله ثم قول البدن وعمله: ولا بد فيه من عمل القلب، مثل: محبة الله ورسوله ﷺ، وخشية الله، وحب ما يحبه الله ورسوله، وبغض ما يبغض الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان»[3].

وفي القرآن ما يدل على أن ما يقوم في القلب هو أصل الإيمان، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ المجادلة: ٢٢.

وقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الحجرات: ١٤.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٦).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٥٥).
(٣) المصدر السابق (٧/ ١٨٦).

وقد ورد عنه ﷺ قوله: **(لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه)**[1].

المطلب الثالث

أعمال القلوب والإسلام

أصل الإسلام في القلب هو الخضوع لله جل وعلا. يقول ابن تيمية: «دين الإسلام الذي ارتضاه الله، وبعث به رسله، هو الاستسلام لله وحده، فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون سواه... فالإسلام في الأصل من باب العمل: عمل القلب والجوارح»[2].

ويبين أن الأحاديث التي جاءت في تفسير الإسلام إنما تفسره بأنه «الاستسلام لله بالقلب مع الأعمال الظاهرة، كما في الحديث المعروف الذي رواه أحمد عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال: والله يا رسول الله، ما أتيتك حتى حلفت عدد أصابعي هذه أن لا آتيك، فبالذي بعثك بالحق ما بعثك به؟: قال: **(الإسلام)**. قال: وما الإسلام؟ قال: **(أن تسلم قلبك لله وأن توجه وجهك لله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة)**[3].. »[4].

(١) أخرجه أحمد (١٣٠٤٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٤١).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٦٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٠٢٢) وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (١٦٠).

(٤) الإيمان الأوسط ص (٢٢٣).

«والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب»[1].

فالأعمال الظاهرة التي هي أركان الإسلام كما في حديث جبريل المشهور لا تقبل ما لم تقرن بالنية، والإخلاص لله، وهما من أعمال القلوب، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ البينة: ٥.

وقال ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات)[2].

كما أن عظم أجرها وتكفيرها الذنوب بحسب ما يصاحبها من أعمال قلبية، فأما الشهادتان، فقد ذكر لهما أهل العلم شروطًا من أعمال القلوب، مثل: الإخلاص، والصدق، والمحبة، واليقين. وأدلة هذه الشروط مذكورة في كتب التوحيد، كقوله ﷺ: **(فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)**[3].

وقوله ﷺ: **(ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقًا من قلبه، إلا حرمه الله على النار)**[4].

وقد أكذب الله المنافقين مع نطقهم بالشهادتين لما كان ما في قلوبهم مناقضًا لهما. يقول الله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۘ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ المنافقون: ١.

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٨١).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧).

(٣) البخاري (٤٢٥) ومسلم (٣٣).

(٤) البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

وأما الصلاة فيقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣، ويقول سبحانه: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ المؤمنون: ١ - ٢.

وأما الزكاة فيقول جل وعلا: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ البقرة: ٢٦٥.

ويقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ البقرة: ٢٦٤ .

وأما الصيام فلا يدخله الرياء، من جهة أنه سرٌّ بين العبد وبين ربه، إذ بإمكان الصائم الفطر في خلوته، لكن مع ذلك جاء ثوابه مشروطًا بالإيمان والاحتساب في قوله ﷺ: **(من صام رمضان إيمانا واحتسابًا غفر الله ما تقدم من ذنبه)**[1].

وأما الحج فيقول تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ البقرة:١٩٦ ، وهو رحلة تعظيم لشعائر الله: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ الحج: ٣٢. والتلبية التي هي شعار الحج تحيي معاني الإخلاص والشكر والتعظيم، والتعبد المحض والانقياد المطلق لله تبارك وتعالى.

(١) أخرجه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩).

المبحث الثاني

أعمال القلوب ومقاصد الشريعة

غاية الشريعة تعبيد الناس لرب العالمين: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦، وذلك بالطاعة المطلقة لله تعالى، مع كمال الحب والذل والخضوع له.

وقد بين الله جل وعلا أن من مقاصد بعثة النبي ﷺ تزكية النفوس، كما في قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ الجمعة: ٢ ومعنى يزكيهم: (أي يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان) قاله ابن عباس[1].

وأصل التزكية التطهير، وقد جاء في السنة ما يبين معنى التزكية، وأن طعم الإيمان لا يوجد إلا بها، وذلك في قوله ﷺ: **(ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان: من عبد الله وحده وأنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه، وزكى نفسه)** فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: **(أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان)**[2]. وهذا المعنى وهو عبادة الله على الشهود والمراقبة من أعمال القلوب.

(١) الجامع لأحكام القرآن(١٨/ ٩٢).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٥٥٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٠٢٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٤٦).

والله عز وجل يدعو عباده إلى ما فيه صلاح قلوبهم، وكذلك دعوة رسوله ﷺ ، يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ الأنفال: ٢٤.

«وقوله: ﴿ يُحْيِيكُمْ ﴾ وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلوب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام»[1].

ويقرر ابن تيمية أن القلب كلما ازداد حباً لله، ازداد عبودية له، وكلما ازداد له عبودية، ازداد له حباً وحرية عما سواه.

فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يطمئن، إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه.

والعبادة لا تحصل إلا بإعانة الله له، فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

«فإنه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادته لله، بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله لا يحب شيئاً لذاته إلا الله، فمتى لم يحصل له هذا؛ لم يكن حقق حقيقة (لا إله إلا الله)، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة، وكان فيه من النقص والعيب بل من الألم

(١) تيسير الكريم الرحمن ص (٣١٨).

والحسرة والعذاب بحسب ذلك، ولو سعى في هذا المطلوب ولم يكن مستعيناً بالله متوكلاً عليه مفتقراً إليه في حصوله، لم يحصل له»[1].

وكثير ممن تكلموا عن مقاصد الشريعة لم يعطوا هذا الجانب حقه، بل ربما أغفله بعضهم، عند كلامهم على مقاصد الشريعة في جلب المصالح ودرء المفاسد.

يقول ابن تيمية في سياق كلام له حول مراتب المصالح والمفاسد: «وكثير من الناس يقصر نظره عن معرفة ما يحبه الله ورسوله، من مصالح القلوب ومفاسدها، وما ينفعها من حقائق الإيمان وما يضرها من الغفلة والشهوة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ الكهف: ٢٨، وقال تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ... ﴾ النجم: ٢٩ - ٣٠.

فتجد كثيراً من هؤلاء في كثير من الأحكام لا يرى من المصالح والمفاسد إلا ما عاد لمصلحة المال والبدن. وغاية كثير منهم إذا تعدى ذلك أن ينظر إلى سياسة النفس وتهذيب الأخلاق، بمبلغهم من العلم.. وقوم من الخائضين في (أصول الفقه)، وتعليل الأحكام الشرعية بالأوصاف المناسبة، إذا تكلموا في المناسبة وأن ترتيب الشارع بالأوصاف المناسبة يتضمن تحصيل مصالح العباد ودفع مضارهم، ورأوا أن المصلحة نوعان: أخروية، ودنيوية، جعلوا الأخروية ما في سياسة النفس وتهذيب الأخلاق

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٩٣، ١٩٤).

من الحكم، وجعلوا الدنيوية ما تضمن حفظ الدماء والأموال والفروج والعقول والدين الظاهر. وأعرضوا عما في العبادات الباطنة والظاهرة من أنواع المعارف بالله، وملائكته وكتبه ورسله وأحوال القلوب وأعمالها: كمحبة الله، وخشيته، وإخلاص الدين له، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، ودعائه، وغير ذلك من أنواع المصالح في الدنيا والآخرة. وكذلك فيما شرعه الشارع من الوفاء بالعهود وصلة الأرحام، وحقوق المماليك والجيران، وحقوق المسلمين بعضهم على بعض، وغير ذلك من أنواع ما أمر به ونهى عنه؛ حفظًا للأحوال السنية وتهذيب الأخلاق، ويتبين أن هذا جزء من أجزاء ما جاءت به الشريعة من المصالح»[(١)].

هذا وقد مثل شيخ الإسلام لما ذكره آنفًا بتحريم الميسر،فإن ذلك ليس لكونه معاملة فاسدة، أو لمجرد كونه أكلاً للمال بالباطل، بل لأنه بنص القرآن يصد القلب عن ذكر الله وعن الصلاة[(٢)].

ثم قال: «فتبين أن الميسر اشتمل على مفسدتين: مفسدة في المال وهي أكله بالباطل، ومفسدة في العمل وهي ما فيه من... فساد القلب والعقل وفساد ذات البين، وكل من المفسدتين مستقلة بالنهي، فينهى عن أكل المال بالباطل ولو كان بغير ميسر كالربا، وينهي عما يصد عن ذكر الله وعن

(١) مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢٣٣، ٢٣٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢٣٤، ٢٣٥).

الصلاة ويوقع العداوة والبغضاء ولو كان بغير أكل مال، فإذا اجتمعا عظم التحريم»[(١)].

وبناء على ذلك قرر تحريم الشطرنج بدون عوض، معللاً بأنها: «إذا استكثر منها، تستر القلب وتصده عن ذلك أعظم من ستر الخمر»[(٢)].

(١) مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢٣٧).

(٢) المصدر السابق (٣٢/ ٢٤٥).

المبحث الثالث

أهمية العناية بالقلب تحلية وتخلية

العناية بالقلب لها جانبان:

التحلية: وذلك بالقيام بالطاعات القلبية.

والتخلية: وذلك بتطهير القلب من أدناس المعاصي القلبية.

وإضافة لما تقدم ذكره في المطالب السابقة، فإن هذه العناية بشقيها تبرز أهميتها من خلال ما يأتي:

أولاً: قيام بفرض عيني:

العناية بالقلب وتحليته بالأعمال القلبية، كالتوكل والمحبة والإخلاص والخشية ونحوها كل ذلك من الفروض العينية.

وهكذا تطهيره من أدران الرياء والكبر وسوء الظن بالله والحسد ونحو ذلك، وقد تقدم تقرير ذلك في المبحث الأول.

ثانيًا: صلاح الجوارح بصلاح القلب:

القلب بصلاحه تصلح الجوارح وتستقيم على سبيل الهدى، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة، سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب. ولهذا قال النبي ﷺ: (**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح لها**

سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب)[1].

وقال أبو هريرة: (القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده). وقول أبي هريرة تقريب، وقول النبي ﷺ أحسن بيانًا، فإن الملك وإن كان صالحًا، فالجند لهم اختيار قد يعصون ملكهم وبالعكس، فيكون فيهم صلاح مع فساده، أو فساد مع صلاحه، بخلاف القلب فإن الجسد تابع له، لا يخرج عن إرادته قط... فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملاً قلبيًا، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق. كما قال أئمة أهل الحديث: قول وعمل، قول باطن وظاهر وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر، وإذا فسد فسد. ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلي العابث: لو خشع قلبه هذا لخشعت جوارحه»[2].

وبهذا كان أصل التقوى والفجور من القلب، قال تعالى في الحديث

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٨٧)، والأثر أخرجه المروزي في: تعظيم قدر الصلاة ١/ ١٩٤ برقم (١٥٠) من قول حذيفة بن اليمان، ثم أخرج نحوه عن سعيد بن المسيب (١٥١)، وقد ضعف الأثرين محقق الكتاب، وضعف الألباني الحديث من قول سعيد بن المسيب، وحكم بوضعه مرفوعًا، انظر إرواء الغليل ٢/ ٩٢، ٩٣ رقم (٣٧٣) والسلسلة الضعيفة (١١٠).

القدسي: (**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، ولو كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**)[1].

قال ابن رجب في شرحه لهذا الحديث: «وفي هذا دليل على أن الأصل في التقوى والفجور هو القلب، فإذا بر القلب واتقى، برت الجوارح، وإذا فجر القلب، فجرت الجوارح كما قال النبيﷺ: (التقوى هاهنا) وأشار إلى صدره[2]»[3].

ومن الناس من يجد في تعويد جوارحه على طاعة الله وكفها عما حرم الله جهدًا وثقلاً، حتى إن بعضهم تحدثه نفسه بالاستقامة، لكن ما إن يسلك طريقها حتى يرجع القهقرى.

ولو أتى هؤلاء البيوت من أبوابها، واجتهدوا مع العمل الظاهر في صلاح قلوبهم، لهان عليهم سلوك سبيل الاستقامة، بل لوجدوا فيه اللذة والسعادة.

وفي الحديث عن النبي @ قال: (**إنما الأعمال كالوعاء، إذا طاب أسفله، طاب أعلاه، وإذا فسد أسفله، فسد أعلاه**)[4].

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤)
(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٧).
(٤) أخرجه أحمد (١٦٩٧٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٣٤).

ثالثًا: كثرة نصوص الكتاب في ذكر القلب:

كثرت نصوص القرآن التي فيها ذكر القلب وطاعاته وأمراضه وأحواله، فقد ذكر القلب في القرآن في مائة وثلاثين موضعًا.

ومن أوصافه المحمودة المذكورة في القرآن: سلامته ، اطمئنانه، هدايته، الربط عليه، تقواه، العقل به، سكينته، رأفته، رحمته، الخير فيه، طهارته، تزيين الإيمان فيه، إيمانه، وجله، ذهاب غيظه، إخباته، لينه، خشوعه، تأليف القلوب.

ومن أوصافه المذمومة: غلظه، الطبع عليه، إثمه، غفلته، الختم عليه، رعبه، عدم فقهه، زيغه، عماه، اشمئزازه من ذكر الله وحده، قفله، قسوته، تزيين الباطل فيه، غلفه، كونه في أكنة، غله، مرضه، إشرابه بالباطل، حسرته، إباؤه الحق، ريبته وارتيابه، نفاقه، تقطعه، صرفه،الشد عليه، إنكاره الحق، لهوه، كونه في غمرة، حميته الجاهلية، الران عليه[1].

رابعًا: القلب هو موضع نظر الله:

إن القلب هو موضع نظر الله جل وعلا، كما قال النبي ﷺ: (**إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**)[2].

(١) لمعرفة الآيات التي فيها تلك الأوصاف يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص٥٤٩ــ٥٥١، مادة: (قلب)، وهذا الإحصاء وتلك الصفات هي لما ورد فيه ذكر لفظة القلب، وأما ما ذكر فيه أعماله دون لفظه، فكثير سوى ما ذكر.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة. (٢٥٦٤).

ويقول جل وعلا في شأن قرابين البدن: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ ﴾ الحج: ٣٧.

ولذا فإن الأعمال تتفاضل عند الله بتفاضل ما في قلوب العاملين[١].

وتبعاً لهذا التفاضل فإن تكفير الأعمال الصالحة للذنوب الوارد في النصوص يكمل أو ينقص بحسب ما في القلوب.

يقول ابن القيم: «فتفاضل الأعمال عند الله بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها، وهذا العمل الكامل هو الذي يكفر تكفيراً كاملاً، والناقص بحسبه، وبهاتين القاعدتين تزول إشكالات كثيرة، وهما: تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان، وتكفير العمل للسيئات بحسب كماله ونقصانه»[٢].

ومما يوضح هذا؛ الفرق العظيم بين صلاة المخلص الخاشع وصلاة المرائي أو الغافل.

ولذا قال حسان بن عطية: «إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة، وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله عز وجل والآخر ساه غافل»[٣].

والمتأمل في الوحيين يجد أن الوعد بالجزاء الحسن على العمل الظاهر يأتي

(١) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢١٢).

(٢) الوابل الصيب ص ٢٨.

(٣) المصدر السابق ص ٥٠.

مشروطاً باقتران عمل قلبي به. ولذلك شواهد في الكتاب والسنة.

منها قوله تعالى: ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ النساء: ١١٤.

وقوله ﷺ: (إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله، إلا أجرت عليها، حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك)[١].

وقوله ﷺ: (من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه)[٢].

وقوله ﷺ: (من قام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه)[٣].

وقوله ﷺ: (من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه)[٤].

ولما كان القلب هو موضع نظر الله عز وجل، كانت الخيرية عنده بحسب سلامة القلب واستقامته، يقول ﷺ: (**خير الناس ذو القلب المخموم واللسان الصادق** ؟) قيل: وما القلب المخموم؟. قال: (**هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد**). قيل: فمن على أثره؟

(١) البخاري (٥٣٥٤)، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠).

(٣) البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩).

(٤) البخاري (١٥٩)، ومسلم (٢٢٦).

قال: (**الذي يشنأ الدنيا، ويحب الآخرة**)[1]، وشاهد ذلك من القرآن قوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ الحجرات: ١٣.

فقلب العبد الصالح هو إناء الله في الأرض يضع فيه الخيرات من الإيمان واليقين والمحبة وغيرها. وفي الحديث عنه @: (إن لله تعالى آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبها إليه ألينها وأرقها)[2].

خامسًا: العناية بالقلب سبب النجاة:

العناية بالقلب سبب النجاة في الآخرة ودخول الجنة. وقد دلت على ذلك أدلة الكتاب والسنة.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الشعراء: ٨٨ - ٨٩.

وقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ ق: ٣١ - ٣٣.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ العنكبوت: ٥٨ ـ٥٩.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٦) وهو في السلسلة الصحيحة للألباني (٩٤٨).

(٢) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٨٤٠) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٩١).

وأحيانًا تذكر أعمال القلوب مقرونة بأركان الإسلام، ويرتب على ذلك الثواب العظيم، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الأنفال: ٢ - ٤.

وقد «قدم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها»[1].

وأحيانًا يعطف الله عمل القلب على الإيمان والعمل الصالح وهو من عطف الخاص على العام بيانًا لعظم منزلة العمل القلبي عند الله، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هود: ٢٣.

وفي حديث أنس بن مالك في قصة الرجل الذي قال فيه النبي ﷺ: (**يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة**)، وفيها أن عبد الله بن عمرو بن العاص تبعه، فبات معه ثلاث ليال، فلم يره يقوم من الليل شيئًا، غير أنه إذا تعار ذكر الله عز وجل وكبر حتى صلاة الفجر، فقال عبد الله: (غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً)، فلما مضت الثلاث، وكدت احتقر عمله، قلت: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣١٥.

ﷺ يقول: (**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**)، فطلعت أنت الثلاث مرات، فأردت أن آوي إليك، فأنظر عملك، فأقتدي بك، فلم أرك عملت كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟. قال: (ما هو إلا ما رأيت، قال: فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق)[1].

وتأمل يا أخي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، تجد أنهم ذوو أعمال قلبية، نتجت عنها أعمال ظاهرة، فحازوا ذلك الفضل العظيم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق صدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**)[2].

فالإمام العادل؛ ما حمله على العدل وحجزه عن الظلم، وقد تمكن من الرقاب والأموال إلا خوفه من الله، واستشعاره لعظمة الموقف بين يدي الحكم العدل.

(١) أخرجه أحمد (١٢٦٩٧) وصحح إسناده الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

(٢) البخاري (٦٦٠)، مسلم (١٠٣١).

وأما الشاب الذي نشأ في عبادة الله، فلم ينتصر على صبوة الشباب، ونزوات نفسه إلا بمعان إيمانية قامت بقلبه.

وأما البقية: فقد أبان النبي ﷺ ما في قلوبهم من أعمال قلبية فمنهم المحب لله الذي عظمت تلك المحبة في قلبه، فتعلق قلبه ببيوت الله، وأحب الرجل لا يحبه إلا في الله.

ومنهم الخائف من الله الذي ثبت قلبه في موقف فتنته تعصف بالرجال .

ومنهم المخلص لله في صدقته؛ ومنهم من امتلأ قلبه بتعظيم الله وإجلاله، ففاضت عيناه في خلوة، فتجلى في عمله الإخلاص والصدق مع الله.

ورحم الله بكر بن عبد الله المزني حين قال: «لم يفضل أبو بكر الناس بكثرة صوم ولا صلاة ، وإنما فضلهم بشيء وقر في قلبه»[1].

وأما الفضيل بن عياض فقد أبان سبيل إدراك المعالي حين قال: «ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام ، وإنما أدرك : بسخاء النفس وسلامة الصدر والنصح للأمة»[2].

سادساً: الآفات القلبية سبب الخسران:

إن الآفات القلبية سبب في الخسارة في الآخرة ودخول النار.

وقد دلت على ذلك أدلة الكتاب والسنة.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا

(١) أورده ابن الملقن في طبقات الأولياء (١/ ٢٦٧).

(٢) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ١٤٩).

فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ القصص: ٨٣.

وقوله في شأن أهل النار: ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ الأعراف: ١٧٩.

وقوله: ﴿ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمُۢا بُورٗا ﴾ الفتح: ١٢.

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ المائدة: ٤١.

وقوله: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ الزمر: ٢٢.

وقوله: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ المطففين: ١٤ - ١٦ .

فنصوص القرآن تدل على أنه «يجب على الإنسان أن يطهر قلبه تطهيراً كاملاً من كل زغل وخبث، وأن يعتنى بطهارة قلبه أكثر مما يعتني بطهارة بدنه؛ لأن طهارة القلب عليها المدار، وبها تكون طهارة الأعمال الظاهرة»[1].

ومن السنة قوله ﷺ: **(ثلاثة لا تسأل عنهم: رجل ينازع الله إزاره، ورجل ينازع الله رداءه، فإن رداءه الكبر، وإزاره العز، ورجل في شك من أمر الله، والقنوط من رحمة الله)**[2].

(١) أحكام القرآن الكريم لابن عثيمين ص ٩٨، ٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٩٤٣) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥٤٢).

والحديث الذي رواه شفي الأصبحي: (أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا، قلت: أنشدك بحق وحق، لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول ﷺ، عقلته وعلمته، فقال أبوهريرة: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ وعلمته، ثم نشغ أبوهريرة نشغة، فمكث قليلاً ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت، ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، فمكث بذلك، ثم أفاق ومسح وجهه قال: أفعل لأحدثنك بحديث حدثنيه رسول ﷺ وأنا وهو في هذا البيت، ما معنا أحد غيرى وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خاراً على وجهه، فأسندته طويلاً ثم أفاق، فقال: حدثني رسول الله ﷺ: (إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة، نزل إلى العباد ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن -وفي لفظ: رجل تعلم القرآن وعلمه وقرأ القرآن-، ورجل يقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقال للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟. قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار -وفي لفظ: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن- فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان قارئ، فقد قيل. وفي لفظ: كذبت ولكنك تعلمت

العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل- ويؤتى بصاحب المال فيقول الله: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج لأحد؟ قال: بلى، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، فيقول الله: بل أردت أن يقال فلان جواد، فقد قيل ذلك. ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقال: فيما قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله: كذبت وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله عز وجل له: أردت أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذلك)، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي، فقال: **(يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة))**[1].

وفيه أن شفيًا دخل على معاوية، فأخبره بهذا، فقال صدق الله ورسوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ هود: ١٥ - ١٦.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله، ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن، يقولون: من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ من أفقه منا؟ ثم قال لأصحابه: هل في أولئك من خير؟)** قالوا : الله ورسوله أعلم. قال:

(١) الحديث أخرجه ابن خزيمة (٢٤٨٢)، والترمذي (٢٣٨٢). وقد صحح إسناده الألباني في تعليقه على ابن خزيمة وأورده في صحيح الجامع برقم (٢٠١٠) وعزاه لأحمد ومسلم والنسائي ..

(أولئك منكم، من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار)[1].

فهذه النصوص النبوية تتضمن الوعيد الشديد على من تلبس بالكبر أو الشك أو القنوط أو الرياء أو العجب، وكل هذه آفات قلبية، وليس الغرض استقصاء النصوص في ذلك.

سابعًا: صلاح القلب وحلاوة الإيمان:

إن صلاح القلب سبب وجود حلاوة الإيمان، ولذة الطاعة، والسعادة في الدنيا.

قال ﷺ: **(ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)**[2].

وقال ﷺ: **(ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً)**[3].

والمحبة والرضا من أعمال القلوب.

وما يعيشه كثير من الناس اليوم من قلق وآلام نفسية، وفقدان للسعادة من

(١) قال المنذري: «رواه الطبراني في الأوسط بإسناد لا بأس به»، وأخرجه أبو يعلي والبزار والطبراني أيضًا من حديث العباس بن عبد المطلب. وحسن الألباني الحديثين في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣) واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم (٣٤).

أعظم أسبابه ضعف محبة الله، والتوكل عليه في نفوسهم.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنه لا نعيم للعبد ولا لذة ولا ابتهاج ولا كمال إلا بمعرفة الله ومحبته والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه، فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم في الآخرة ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها، لم يدخل جنة الآخرة.

وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه... وكل من له قلب حي يشهد هذا، ويعرفه ذوقاً»[1].

ومن لم يجد هذا فليبك على نفسه، وليسع في طلب أسباب حياة قلبه. وليعلم أن فقد حلاوة الطاعة أمارة دخل فيها.

يقول ابن القيم: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك، فاتهمه، فإن الرب تعالى شكور. يعني أنه لا بد أن يثيب العامل عن عمله في الدنيا حلاوة يجدها في قلبه وقوة وانشراحاً وقرة عين، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول»[2].

(١) تهذيب مدارج السالكين ص٢٤٥.

(٢) المصدر السابق ص ٣١٢.

وقال يحي بن معاذ: سقم الجسد بالأوجاع، وسقم القلب بالذنوب، فكما أن الجسد لا يجد لذة الطعام عند سقمه، فكذلك القلب لا يجد حلاوة العبادة مع الذنوب[1].

وقد يقول قائل: لماذا لا يحصل الانشراح وقرة العين إلا بالإقبال على الله ظاهراً وباطناً؟.

يقول ابن تيمية: «والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين من جهة العبادة، وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلة.

فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه. ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات، لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة»[2].

ويقول ابن القيم: «ففي القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه. وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه... وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة

(١) ذم الهوى لابن الجوزي ص٦٠،٦١..

(٢) العبودية ص ١٠٨.

إليه ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها، لم تسد تلك الفاقة منه أبداً»[1].

ثامنًا: إهمال القلب وسوء الخاتمة:

إن إهمال العناية بالقلب تحلية وتخلية سبب لسوء الخاتمة والعياذ بالله.

وقد أشار إلى ذلك النبيﷺ فيما ثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد أنه قالﷺ: (**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**)، زاد البخاري: (**وإنما الأعمال بالخواتيم**)[2].

قال ابن رجب: «قوله: (**فيما يبدو للناس**) إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيء ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت»[3].

وفي معرض كلام لابن الجوزي حول اليقين والرضا والصبر وهي من أعمال القلوب يقول: «ولا بد من لقاء البلاء، و لو لم يكن إلا عند صرعة الموت، فإنها إن نزلت والعياذ بالله، فلم تجد معرفة توجب الرضا أو الصبر، أخرجت إلى الكفر.

(١) تهذيب مدارج السالكين ص٥٦٦.
(٢) صحيح البخاري (٢٨٩٨) و (٦٦٠٧)، ومسلم (١١٢).
(٣) جامع العلوم والحكم ص (١/ ١٧٢).

ولقد سمعت بعض من كنت أظن فيه كثرة الخير، وهو يقول في ليالي موته: ربي هو ذا يظلمني!!. فلم أزل منزعجاً مهتماً بتحصيل عدة ألقى بها ذلك اليوم. كيف وقد روي أن الشيطان يقول لأعوانه في تلك الساعة: عليكم بهذا، فإن فاتكمْ لم تقدروا عليه.

وأي قلب يثبت عند إمساك النفس، والأخذ بالكظم، ونزع النفس، والعلم بمفارقة المحبوبات إلى ما لا يدري ما هو، وليس في ظاهره إلا القبر والبلى، فنسأل الله عز وجل يقيناً يقينا شر ذلك اليوم، لعلنا نصبر للقضاء أو نرضى به»[1].

وليتفكر اللبيب في حاله لو نزل به مفجع أو أصابه مرض عضال هل عنده من الإيمان واليقين ما يعينه على الرضا أو الصبر، فإن سلم من ذلك فلن يسلم من صرعة الموت ومعاناة سكرته، وقد كان من دعائهﷺ: (**اللهم إني أعوذ بك من أن يتخبطني الشيطان عند الموت**)[2]. اللهم احفظ علينا إيماننا، واختم لنا بالحسنى، وتولنا في الآخرة والأولى.

تاسعًا: صلاح القلب وبركة العمل:

إن صلاح القلب واستقامته يبارك العمل القليل، ويضاعف الأجور، وأعمال القلوب تستمر في وقت تنقطع فيه أعمال الجوارح. وفي ذلك

(١) صيد الخاطر ص١٣٧.
(٢) أخرجه أحمد (١٥٥٢٣) وأبو داود (١٥٥٢)، والنسائي (٥٥٣٢) وصححه الألباني.

ينقل ابن القيم ما روي عن أبي الدرداء ﷺ قوله: (يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنون قيام الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب التقوى أفضل من أمثال الجبال من عبادة المغترين)[1].

ثم يعلق ابن القيم على هذا فيقول: «وهذا من جواهر الكلام وأدله على كمال فقه الصحابة، وتقدمهم على من بعدهم في كل خير.

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة هي تقوى القلوب لا تقوى الجوارح، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ الحج: ٣٢، وقال ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ الحج: ٣٧ وقال النبي ﷺ: **(التقوى ههنا)** – وأشار إلى صدره –[2].

فالكيس يقطع من المسافة، بصحة العزيمة، وعلو الهمة، وتجريد القصد، وصحة النية، مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ عن ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق»[3].

ويبين رحمه الله عدم تناهي مضاعفة أجور الأعمال القلبية فيقول: «ومنها أن أعمال الجوارح تضاعف إلى حد معلوم محسوب، وأما أعمال القلوب فلا ينتهي تضعيفها؛ وذلك لأن أعمال الجوارح لها حد تنتهي إليه وتقف

(١) أورده أبو نعيم في الحلية (١/ ٢١١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).
(٣) الفوائد ص٢٠٨.

عنده، فيكون جزاؤها بحسب حدها، وأما أعمال القلوب فهي دائمة متصلة وإن توارى شهود العبد لها.

مثاله: أن المحبة والرضا حال المحب الراضي لا تفارقه أصلا، وإن توارى حكمها، فصاحبها في مزيد متصل. فمزيد المحب الراضي متصل بدوام هذه الحال له، فهو في مزيد ولو فترت جوارحه، بل قد يكون مزيده في حال سكونه وفتوره أكثر من مزيد كثير من أهل النوافل بما لا نسبة بينهما.

فإن أنكرت هذا، فتأمل مزيد نائم بالله، وقيام غافل عن الله، فالله سبحانه إنما ينظر إلى القلوب والهمم والعزائم لا إلى صور الأعمال»[1].

وقد ورد عن عبد الله بن المبارك قوله: «رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كثير تصغره النية»[2].

عاشراً: دوام آثار معاصي القلب:

كما أن طاعات القلب تصير حالاً مستمرة مع الشخص، فكذلك معاصيه، فالكبر مثلاً هو حال المتكبر، والحسد هو حال الحاسد مستمر معه.

ولما ذكر بعض العلماء شيئًا من الكبائر القلبية كالكبر والحسد والغل والرياء قال: «وأمثال هذه يذم العبد عليها أعظم مما يذم على الزنا والسرقة وشرب الخمر ونحوها من كبائر البدن؛ وذلك لعظم مفسدتها وسوء أثرها ودوامه، فإن آثار هذه الكبائر ونحوها تدوم بحيث تصير حالاً وهيئة راسخة

(١) تهذيب مدارج السالكين ص ٣٨١.
(٢) أورده ابن رجب في جامع العلوم والحكم ج١ ص٧١.

في القلب، بخلاف آثار معاصي الجوارح، فإنها سريعة الزوال تزول بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب المكفرة»[(١)].

حادي عشر: أعمال القلوب والآفات:

أعمال القلوب تسلم من الآفات لخفائها، فحب الله ورسوله ﷺ وإرادة وجه الله أمر محبوب لله ورسوله مرضي لله ورسوله ﷺ.

«والأعمال الظاهرة يدخلها آفات كثيرة، ولهذا كانت أعمال القلوب المجردة أفضل من أعمال البدن المجردة، كما قيل: قوة المؤمن في قلبه وضعفه في جسمه والمنافق عكسه»[(٢)].

ولذا يقرر العز بن عبد السلام أن: «أعمال القلوب وطاعتها مصونة من الرياء، إذ لا رياء إلا بأفعال ظاهرة ترى أو تسمع، والتسميع عام لأعمال القلوب والجوارح»[(٣)].

والمعنى أن محبة الله لا يدخلها الرياء من حيث كونها عملاً قلبياً، لكن يمكن التسميع بأن يخبر الشخص بأنه يحب الله حباً عظيماً؛ ليحمده الناس.

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٧٩).
(٢) مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية ص١١.
(٣) قواعد الأحكام (١/ ١٢٥).

ثاني عشر: بين أسر القلب وأسر البدن:

إن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، وعبودية القلب هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن من استعبد قلبه لغير الله، ضره ذلك، ولو كان في الظاهر ملك الناس.

وقد قال ﷺ: **(تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أُعطي رضي، وإن مُنع سخط)**[(١)]، وما هي إلا عبودية القلب بتعلقه بحطام الدنيا.

يقول ابن تيمية بعد ذكره هذا الحديث: «فسماه النبي ﷺ عبد الدرهم وعبد الدينار وعبد القطيفة وعبد الخميصة، وذكر ما فيه من دعاء وخبر، وهو قوله: **(تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش)** والنقش إخراج الشوكة من الرجل، والمنقاش ما يخرج به الشوكة، وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح؛ لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه. وهذه حال من عبد المال، وقد وصف ذلك بأنه: **(إذا أعطي رضي وإن منع سخط)**، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ التوبة:٥٨ فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال كل من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦).

والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته»[(١)].

ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس، قال النبي ﷺ: **(ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس)**[(٢)].

وهذا لعمري إذا كان قد استعبدت قلبه صورة مباحة، فأما من استعبدت قلبه صورة محرمة: امرأة أو صبي، فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه. وهؤلاء من أعظم الناس عذاباً، و أقلهم ثواباً، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقاً بها، مستعبداً لها، اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، ولوسلم من فعل الفاحشة الكبرى، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضرراً عليه ممن يفعل ذنباً ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه»[(٣)].

ويقرر في موضع آخر أن: «الزنا بالفرج أعظم من الإلمام بصغيرة، كنظرة وقبلة، وأما الإصرار على العشق ولوازمه من النظر ونحوه، فقد يكون أعظم من الزنا الواحد بشيء كثير»[(٤)].

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨١،١٨٠).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ١٨٦، ١٨٧).
(٤) قاعدة في المحبة لابن تيمية ص٧٧، وانظر: نحوه في إغاثة اللهفان (٢/ ١٥٠)، الجواب الكافي ص٣٠١.

ولما ذكر ابن القيم هذا المعنى علله بأن الإصرار على الصغيرة قد يساوي إثمه إثم الكبيرة أو يزيد عليها، وبأن تعبد القلب للمعشوق شرك، وفعل الفاحشة معصية، ومفسدة الشرك أعظم من مفسد المعصية، وبأن العشق يعز التخلص منه[(٥)].

ثالث عشر: عرض الفتن على القلوب:

إن القلب هو المحل الذي تعرض عليه الفتن، وبحسب قبوله لها تعظم ظلمته، حتى يصل إلى أن لا يقبل الحق، ولا يعرف المعروف، ولا ينكر المنكر، بل يتبع هواه بغير هدى من الله .

وهذا حال كثير ممن وقع في الفتن وأُشربها قلبه، ولذا قل من يرجع عنها حتى يخوض غمارها، ويتلطخ بأقذارها، فإذا ولت مدبرة، استبان الصبح لكل ذي عينين، ولو أن هؤلاء المفتونين استناروا بالوحي من الكتاب والسنة، وما كان عليه سلف الأمة في فهمهما، ورجعوا إلى أهل العلم لأنكرت قلوبهم الفتن من أولها، وسلموا من الولوغ فيها، لكنه الهوى المتبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه.

ويبين عرض الفتن على القلوب حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم، نحن سمعناه، فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وماله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تلك يكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع رسول الله

(٥) انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ١٥١).

ﷺ يذكر التي تموج كموج البحر؟ قال حذيفة: فسكت القوم، فقلت: أنا، قال: أنت لله أبوك؟ فقال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(تعرض الفتن كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر: أسود مرباداً، كالكوز مجخيا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه)**[1].

هذا وقد أرشد النبي ﷺ إلى أن الإخلاص ومناصحة ولي الأمر ولزوم الجماعة تقي القلب من الفتن.

يقول ﷺ: **(ثلاث لا يغلُّ عليهن قلب رجل مسلم أبداً: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم)**[2].

وقوله: (**يُغِل**)، من الإغلال، وهو الخيانة في كل شيء، ويروى (يَغِل) من الغل، وهو الحقد والشحناء، أي لا يدخله حقد يزيله عن الحق. والمعنى أن هذه الخلال الثلاث تصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر[3].

(١) أخرجه مسلم (١٤٤) وأصله عند البخاري (٥٢٥).
(٢) أخرجه أحمد (٢١٩٢٤) وابن ماجه (٣٠٥٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٠٤).
(٣) انظر: بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني (١/ ١٦٤).

المبحث الرابع

الارتباط بين الظاهر والباطن

تقدم في المطالب السابقة ما يبين عظم قدر الأعمال القلبية، وأنها أصل لأعمال الجوارح.

ولا يعنى هذا التهوين من أعمال الجوارح الظاهرة، إذ إن هناك ارتباطًا قويًا بين الظاهر والباطن.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أموراً ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعوراً وأحوالاً»[1].

ويقول: «إن الظاهر لا بد له من باطن يحققه ويصدقه ويوافقه، فمن قام بظاهر الدين من غير تصديق بالباطن فهو منافق، ومن ادعى باطنًا يخالف ظاهراً فهو كافر منافق، بل باطن الدين يحقق ظاهره، ويصدقه ويوافقه، وظاهره يوافق باطنه، ويصدقه ويحققه. فكما أن الإنسان لا بد له من روح وبدن، وهما متفقان، فلا بد لدين الإنسان من ظاهر وباطن يتفقان، فالباطن للباطن من الإنسان والظاهر للظاهر منه. والقرآن مملوء من ذكر أحكام الباطن والظاهر، والباطن أصل الظاهر»[2].

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٩٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٦٨).

ويقول ابن القيم: «والله تعالى أمر عباده أن يقوموا بشرائع الإسلام على ظواهرهم، وحقائق الإيمان على بواطنهم، ولا يقبل واحداً منهما إلا بصاحبه وقرينه.

وفي المسند مرفوعاً: (**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**)[1].

فكل إسلام ظاهر لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة، فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الإيمان الباطن. وكل حقيقة باطنة، لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة، لا تنفع لو كانت ما كانت»[2].

ويبين شيخ الإسلام التأثير المتبادل بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح فيقول: «إذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له، لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال والأعمال الظاهرة.

فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولا زمه ودليله ومعلوله.

كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضاً تأثير فيما في القلب.

فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلب هو الأصل، والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه»[3].

(١) أخرجه أحمد (١٢٤٠٨) وصححه إسناده أحمد شاكر في تحقيق الطحاوية ص٣٣١. وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٦٩٠٦).

(٢) الفوائد ص٢٠٨.

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤١)، وانظر الموافقات (١/ ٢٣٣).

وما قرره شيخ الإسلام في النقول السابقة من أن القلب هو الأصل، بينه في موضع آخر مفصلاً.

فذكر أن «كل ما أوجبه الله على العباد لا بد أن يجب على القلب؛ فإنه الأصل وإن وجب على غيره تبعاً، فالعبد المأمور المنهي إنما يعلم بالأمر والنهي قلبه، وإنما يقصد بالطاعة والامتثال القلب، والعلم بالمأمور والامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به، كالصلاة والزكاة والصيام، وإذا كان القلب قد أعرض عن معرفة الأمر وقصد الامتثال كان أول المعصية منه، بل كان هو العاصي وغيره تبع له في ذلك، ولهذا قال في حق الشقي: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ القيامة: ٣١ - ٣٢ في غير موضع.

والمأمور نوعان:

(١) **نوع هو عمل ظاهر على الجوارح**: وهذا لا يكون إلا بعلم القلب وإرادته، فالقلب هو الأصل فيه، كالوضوء والأغسال وكأفعال الصلاة: من القيام والركوع والسجود، وأفعال الحج: من الوقوف والطواف، وإن كانت أقوالاً، فالقلب أخص بها، فلا بد أن يعلم القلب وجود ما يقول، أو بما يقول ويقصده.

ولهذا كانت الأقوال في الشرع لا تعتبر إلا من عاقل يعلم ما يقول ويقصده...

(٢) **النوع الثاني: ما يكون باطناً في القلب**: كالإخلاص، وحب الله ورسوله، والتوكل عليه، والخوف منه، وكنفس الإيمان القلب وتصديقه بما أخبر به

الرسول، فهذا النوع تعلقه بالقلب ظاهر؛ فإنه محله، وهذا النوع هو أصل النوع الأول، وهو أبلغ في الخير والشر من الأول[1].

ومن خلال النقول السابقة يتبين أنه من حيث اللزوم، فإن الإيمان الباطن يستلزم العمل الصالح الظاهر، ولا عكس كما هو شأن المنافقين.

وأما من حيث التأثير فإن كلاً من الظاهر والباطن يؤثر أحدهما في الآخر.

ومن أدلة كون الباطن يؤثر في الظاهر قوله ﷺ: (**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**)[2].

ومن عظيم خطر المعاصي القلبية آثارها السيئة على الأعمال الظاهرة، فكم من مكثر من العمل الصالح الظاهر، حرم خير عمله بدسيسة في قلبه.

ومن شواهد ذلك أن الرياء سبب في حبوط العمل وعدم قبوله. وفي الحديث القدسي: (**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**)[3].

والكبر ولو كان قليلاً مانع من دخول الجنة، فمن أتى بسبب دخول الجنة وهو العمل الصالح فليحذر المانع، يقول ﷺ: (**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**)[4].

(١) دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (١/ ٢٣٩-٢٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٤) أخرجه مسلم (٩١).

والحسد يؤثر في الحسنات، ورد أن رسول الله ﷺ قال: (إن الحسد يطفئ نور الحسنات)[1].

والمن بالقلب واللسان مبطل الصدقات قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ البقرة: ٢٦٤.

وأما كون الأعمال الظاهرة تؤثر في الباطن، فمن أدلته قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ المائدة: ١٢ - ١٣.

وقوله ﷺ: (**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**)[2].

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦/ ٣٦٦) وحسن إسناده محققه، وقال الألباني: إسناده يحتمل التحسين. انظر: السلسلة الضعيفة (٧/ ٤٦٨). وفي الباب حديث: (إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب). أخرجه أبوداود (٤٩٠٣) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٩٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٠٤٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٤١).

وقوله ﷺ: (**لتسوون صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم**)[١].

وقوله ﷺ: (**من ترك ثلاث جُمَع تهاونًا، طبع الله على قلبه**)[٢].

وقد ورد أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له: (**إن أردت أن يلين قلبك، فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم**)[٣].

وبهذا يتبين أنه لا غنى للمسلم عن أعمال القلب وأعمال الجوارح، فبيان عظم قدر أعمال القلوب لا يعني التقليل من أهمية أعمال الجوارح.

والناس في هذا بين إفراط وتفريط، وقد أورد ابن القيم قول بعض السلف: «ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان:

- إما إلى تفريط أو تقصير.
- وإما غلو أو مجاوزة.

ولا يبالي بأيهما ظفر».

ثم ذكر أمثلة على ذلك من واقع الناس، ومنها قوله: «وقصر بقوم أهملوا أعمال القلوب، ولم يلتفتوا إليها، وعدوها فضلاً، أو فضولاً.

وتجاوز بآخرين حتى قصروا نظرهم وعملهم عليها، ولم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح، وقالوا: العارف لا يسقط وارده لورده»[٤].

(١) أخرجه مسلم (٤٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٥٨٠) وأبو داود (١٠٥٢) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٧٢٩).

(٣) أخرجه أحمد (٧٥٦٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٥٤).

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ١١٦ـ١١٨).

الفصل الثالث

القيام بالأعمال القلبية علمًا وعملاً

وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: حكم تعلم علم القلب.
- المبحث الثاني: كيفية القيام بالأعمال القلبية.
- المبحث الثالث: نبذة في وسائل إصلاح القلب.
- المبحث الرابع: وجوب لزوم السنة في طريق إصلاح القلب.
- المبحث الخامس: إنكار منكرات القلوب وخطأ التشبيط عن الخير حذر الرياء.

المبحث الأول

حكم تعلم علم القلب

علم أعمال القلوب من علوم النبوة التي نقلها إلينا الصحابة يقول ابن تيمية: «كما أن علم النبوة من الإيمان والقرآن وما يتبع ذلك من الفقه والحديث وأعمال القلوب إنما خرجت من الأمصار التي يسكنها جمهور أصحاب رسول الله ﷺ»[(١)].

وقد ذكر النووي في معرض كلام له عن حكم تعلم العلوم أن «علم القلب كالحسد والعجب والرياء وشبهها»، فيه قولان:

الأول: أن معرفة حدودها وأسبابها وطبها وعلاجها فرض عين. وهو قول الغزالي.

واستدل لهذا بأن معرفة كبائر القلب واجبة «ليعالج زوالها، لأن من كان في قلبه مرض منها لم يلق الله – والعياذ بالله– بقلب سليم»[(٢)].

الثاني: التفصيل «فمن رزق قلباً سليماً من هذه الأمراض المحرمة كفاه ذلك، ومن لم يسلم وتمكن من تطهير قلبه بغير تعلم العلم المذكور وجب تطهيره، وإن لم يتمكن إلا بتعلم وجب»، ونسب هذا القول لغير

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٦١)، وانظر: المصدر نفسه (١٣/ ٣٩٠).

(٢) الدليل في الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٧٩).

الغزالي[1].

ويمكن الاستدلال للقول الثاني بأن الوسائل لها حكم الغايات، وتخليص القلب من تلك الآفات واجب، فإن لم يكن له طريق سوى التعلم وجب. أما إذا كان القلب سليماً منها، أو تمكن من تطهير قلبه بوسيلة غير التعلم فلا وجه حينئذ لإيجاب التعلم عليه.

وبهذا يتبين أن الثاني هو الراجح.

والتفصيل المتقدم في أمراض القلوب جارٍ في فرائض القلب، فالتوكل مثلاً من رزقه الله حسن التوكل لم يحتج لتعلم أسباب تحصيله، ومن ضعف توكله عن القدر الواجب، فعليه أن يسعى في تحقيق التوكل، ويجب عليه تعلم أسباب ذلك إن لم يمكنه إصلاح قلبه إلا بذلك.

ولابن القيم تفصيل في فرض العين من العلم، وفيه قوله: «والواجب في العمل: معرفة موافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمراً وإباحة.

والواجب في الترك: معرفة موافقة الكف والسكون لمرضاة الله... وقد دخل في هذه الجملة علم حركات القلوب والأبدان»[2].

(١) روضة الطالبين (١٠/ ٢٢٤، الأشباه والنظائر للسيوطي ص٤١٦.

(٢) مفتاح دار السعادة ص١٧٠-١٧٣.

المبحث الثاني

كيفية القيام بالأعمال القلبية

من قواعد الشرع أن ما لا يدخل تحت القدرة لا يكلف الإنسان به.

ومن هنا قد يرد إشكال حول التكليف بالأعمال القلبية.

ويزول هذا الإشكال بأمرين:

الأول: أن ما يكلف به العبد في قلبه من طاعات، ويحرم عليه من معاص هي أمور اختيارية يمكن فيها الفعل والترك.

يقول بن القيم:(فإن ما يعاقب عليه من أعمال القلوب هو معاص قلبية يستحق العقوبة عليها، كما يستحقه على المعاصي البدنية؛ إذ هي منافية لعبودية القلب ، وهي أمور اختيارية يمكن اجتنابها، فيستحق العقوبة على فعلها).[1]

الثاني:أن التكليف بها أمراً أو نهياً تكليف بأسباب تحصيلها إن كانت طاعات، أو بأسباب تنقية القلب منها إن كانت سيئات، مع تجنب الأسباب المخلة بسلامة القلب عموماً[2].

وفي الكتاب والسنة إرشاد إلى هذه الأسباب وتلك.

فمن الدعوة إلى ما يحيي القلب ويصلحه قوله سبحانه:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾الأنفال:٢٤ فقوله:

(١) زاد المعاد ٥/ ١٨٥.

(٢) انظر: الموافقات (٢/ ١١١) الوجيز في أصول الفقه ص٧٨.

﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾: هذا «وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام»[1].

ومنها قوله: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ التوبة: ١٠٣.

ومنها قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٨٣. وقد تقدم أن التقوى تقوى القلوب قبل الجوارح.

ومن الأسباب التفصيلية التي يحصل بها بعض الأعمال القلبية ذكر الله، فهو سبب في طمأنينة القلب وحياته، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ الرعد: ٢٨.

وقال ﷺ: **(مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت)**[2].

وقراءة القرآن سبب في تقوية محبة الله ورسوله ﷺ، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: **(من سرَّه أن يحبَّ الله ورسوله فليقرأ في المصحف)**[3].

ومن ذلك الإرشاد إلى إخفاء النوافل طلباً لسلامة النية، وحذراً من نوازع الرياء، فمن ضمن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله:

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص٣١٨.
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٧) ومسلم (٧٧٩) بنحوه.
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٠٩)، وابن شاهين في فضائل الأعمال (١٩١). وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٣٤٢).

(رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[1].

ومنها قوله ﷺ: **(انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم)**[2].

وقوله ﷺ: **(ألا أخبركم بما يذهب وحر الصدر: صوم ثلاثة أيام من كل شهر)**[3].

هذه شواهد وسيأتي ذكر المزيد، عند الكلام عن الأسباب التي يصلح بها القلب إن شاء الله.

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).
(٢) أخرجه أحمد (١٠٢٥١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٠٧).
(٣) أخرجه النسائي (٢٣٨٥) وصححه الألباني.

المبحث الثالث

نبذة في أسباب صلاح القلب

لعل من المناسب الإشارة إلى نبذة في أسباب صلاح القلب؛ لتكون نبراساً لمن عزم على السير في هذا الطريق، وسمت همته إلى المطالب العليا.

وقبل ذكرها أشير إلى أنه لا بد للانتفاع والعمل بها من أمرين:

(١) علو الهمة وصدق العزيمة على تزكية النفس وإصلاح القلب:

«وصاحب الهمة العالية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان والعمل الذي يقربه إلى الله ويدنيه من جواره»[(١)]، «ومثل القلب مثل الطائر، كلما علا، بعد عن الآفات، وكلما نزل، احتوشته الآفات»[(٢)].

ومما يعين على علو الهمة إعلاء القدوة بصحبة أهل القلوب الربانية، وحضور مجالسهم، فإن عز وجودهم، فليصحبهم في كتب السير، ففي سيرة نبينا محمد ﷺ وأصحابه وسلف الأمة وصالحيها عبرة، لكل مدكر، ومناراً لكل طالب أسوة.

فعن النبي ﷺ قال: **(قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيَّ والمتجالسين فيَّ والمتزاورين فيَّ والمتباذلين فيَّ)**[(٣)].

(١) تهذيب مدارج السالكين ص٢٤٧.

(٢) الجواب الكافي ص٧٠.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٣٨٠) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٠١١).

(٢) توطين النفس على الخروج عن العوائد الصادة عن سبيل الهدي:

وذلك أن كل إنسان تعود في يومه وليلته على أعمال ومخالطات، وقضاء أوقات فيما لا ينفع، أو فيما يصد عما هو أنفع. ومفارقة المألوف من أشق الأشياء على النفس.

يقول ابن القيم بعد أن ذكر أسباب الفلاح: «لا يغتر العبد بأن مجرد علمه بما ذكر كاف في حصول المقصود، بل لا بد أن يضيف إليه بذل الجهد في العمل، واستفراغ الوسع والطاقة في ذلك.

وملاك ذلك الخروج عن العوائد؛ فإنها أعداء الكمال والفلاح، ويستعين على ذلك بالهروب من مظان الفتنة، والبعد عنها ما أمكنه»[(١)].

هذا وقد تقدم أن الشريعة جاءت لإحياء القلوب وتطهيرها من الآفات، فكل ما شرعته يحقق هذا المقصد[(٢)].

ولكن هناك أسباب خاصة لها تأثير خاص في إصلاح القلب لعل من أبرزها الأسباب التالية:-

(١) الاستعانة بالله جل وعلا:

تحقيقاً لقوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة: ٥، وقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ هود: ١٢٣، وعملاً بوصية رسول الله ﷺ لحبيبه معاذ بن جبل، فعن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: **(يا معاذ والله إني لأحبك)**، فقلت: وأنا أحبك يا رسول الله، فقال: **(أوصيك يا معاذ في**

(١) انظر: عدة الصابرين ص٨٧ ـ ٨٦.

(٢) راجع ما تقدم ص ٣٥ وما بعدها.

دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[1].

وكما أن هذا الدعاء مشروع أدبار الصلوات فهو مشروع مطلقاً، وهو غاية الاجتهاد في الدعاء، قال ﷺ: (**أتحبون أن تجتهدوا في الدعاء؟ قولوا: اللهم أعنا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك**)[2].

فالعبد يستعين بربه على عبادته، وهذه الاستعانة تتجلى في أمرين:

(أ) **التوكل على الله في صلاح القلب**، فيعتمد المؤمن على الله وحده في صلاح قلبه، ويشعر بالافتقار والاضطرار إلى الله جل وعلا في استقامة قلبه على طاعته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فاطر: ١٥، ويستشعر أنه لو وكله الله إلى نفسه وجهده هلك لا محالة.

وهذا التوكل هو توكل أرباب الهمم العالية الذين يجعلون توكلهم في تحصيل العلم والإيمان والدعوة والجهاد.

(ب) **الدعاء تضرعاً وخيفة**: ولا يخفى فضل الدعاء وعظيم أثره،لكن كثيراً من الناس يغفلون عن الدعاء بصلاح قلوبهم.

يقول ابن القيم: «العجب ممن تعرض له حاجة فيصرف رغبته وهمته فيها إلى الله ليقضيها له، ولا يتصدى للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل والإعراض، وشفائه من داء الشهوات والشبهات، ولكن إذا مات القلب لم

(١) أخرجه أبوداود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وصححه الألباني، وصححه إسناده النووي في الأذكار ص١٤٢.

(٢) أخرجه أحمد (٢٩٨٢)، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٨٤٤).

يشعر بمعصيته»[1].

وكثيرون يغفلون عن قصد التقرب إلى الله بالدعاء، ويكون قصدهم منصرفاً إلى حصول مطلوبهم، فيفوتهم خير عظيم[2].

والدعاء سبب جامع لصلاح القلب تحلية وتخلية، يقول مطرف بن عبدالله: «تذاكرت ما جماع الخير؟ فإذا الخير كثير: الصيام والصلاة، وإذا هو في يد الله تعالى. وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله إلا أن تسأله فيعطيك،فإذا جماع الخير الدعاء»[3].

فمن لجأ إلى الله، وانطرح بين يديه سائلاً صلاح قلبه، داعياً بحضور قلب، متحرياً أوقات الإجابة، فما أقرب أن يجاب، وقد قال ﷺ: (**إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم**)[4].

وإليك يا أخي المسلم طائفة من الأدعية الواردة في الكتاب والسنة مما يتعلق بصلاح القلب، لتعرف من خلالها عظم اهتمام الشريعة بهذا الأمر، ولتتعبد الله بها، فإن في الأدعية المأخوذة من مشكاة القرآن والسنة من

(١) الفوائد ص ٣١٥.

(٢) انظر: مجموع الفوائد لابن سعدي ص٨٤.

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٧٦).

(٤) أخرجه الحاكم (١/ ٤)، والطبراني في الكبير (١٤٦٦٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٨٥).

الجلال والجمـال والتأثير ما ليس في غيرها[1].

- (اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة.. وأسألك الرضى بعد القضاء... وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين)[2].
- اللهم جدد الإيمان في قلوبنا.
- ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين.
- ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.
- اللهم إني أسألك اليقين والمعافاة.
- اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى.
- اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا.
- اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك.
- اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع.

(١) الأدعية استفدتها من كتاب: التذكرة بأذكار الحج والعمرة وأدعية القرآن والسنة، وقد تحرى مؤلفه ما ثبت في السنة كما ذكر في مقدمة كتابه.
وانظر: طائفة منها في ترتيب صحيح الجامع الصغير ٣/ ٤٣١ ـ ٤٤٥.
(٢) لابن رجب رسالة في شرح هذا الدعاء مطبوعة.

- يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.
- ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الحشر: ١٠.
- رب اجعلني لك ذكاراً، لك شكاراً، لك رهاباً، لك مطواعاً، لك مخبتاً، لك أواهاً منيباً، وأهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة صدري.
- اللهم إني أعوذ بك من القسوة والغفلة والذلة والمسكنة، وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والسمعة والرياء.
- اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي.
- اللهم إني أسألك قلباً سليماً.
- نعوذ بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن.
- اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء.
- اللهم أعني على شكرك وذكرك وحسن عبادتك.
- اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك.

(٢) تلاوة كتاب الله بالتدبر والتفهم لمعانيه.

فالقراءة بالتدبر من أعظم ما يصلح القلب ويشفيه من أمراض الشبهات والشهوات، لما في القرآن من البراهين الجلية والمواعظ البليغة.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يونس: ٥٧.

والموعظة التي بها شفاء القلوب هي القرآن.

ويقول سبحانه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الإسراء: ٨٢.

وقد سمى الله القرآن روحـًا في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ الشورى: ٥٢؛ لأنه تحيا به القلوب، كما أن الروح يحيا بها البدن.

وأوصى نبينا ﷺ بتلاوة القرآن، وجعله روحـًا للمؤمن، فعن أبي سعيد الخدري أن رجلاً جاءه فقال: أوصني، فقال: سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ قبلك، فقال: **(أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء، وذكرك في الأرض)**[1].

ومما يدل على أن ذلك هو الطريق إلى محبة الله قوله ﷺ: **(إن لله أهلين من الناس قالوا: يا رسول الله، من هم؟ قال: هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته)**[2].

وأهل القرآن هم العالمون به العاملون بما فيه وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه، فليس من أهله وإن أقام

(١) أخرجه أحمد (١١٧٩٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٥٥٥).
(٢) أخرجه أحمد (١٢٣٠٤) وابن ماجه (٢١٥) وصححه الألباني.

حروفه إقامة السهم[1].

و الله جل وعلا يقول: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ الرعد: ٢٨.

وقد قيل: إن الذكر هنا هو ذكر العبد ربه بأنواع الذكر. وقيل: إن المراد بذكر الله هنا هو القرآن، والأرجح أنه يشمل الأمرين، وتلاوة القرآن من ذكر الله.

وقد اختار ابن القيم القول الثاني وقال: «فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به»[2].

وكثير من يقرأ القرآن ولكن القليل من يتدبره، والله جل وعلا أمر بالتدبر وهو زائد على مجرد القراءة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ محمد: ٢٤.

«وتدبر القرآن يزيد في علوم الإيمان وشواهده، ويقوي الإرادة القلبية، ويحث على أعمال القلوب من التوكل والإخلاص والتعلق بالله الذي هو أصل الإيمان»[3].

(١) زاد المعاد ١/ ٣٣٨.
(٢) التفسير القيم ص٣٢٤.
(٣) مجموع الفوائد لابن سعدي ص٨٠.

ولا يتم الانتفاع بالقرآن إلا مع التدبر قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ق: ٣٧.

يقول ابن القيم: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم سبحانه منه إليه.

فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع بالقرآن والتذكر»[٤].

والتدبر يقوم على أمرين: الفهم، والاتعاظ، وطريق الفهم معرفة اللسان العربي ومراجعة كتب التفسير فيما يشكل، وطريق الاتعاظ إزالة الحجب والأقفال التي تمنع تفاعل القلب مع مواعظ القرآن، وتخير أوقات الصفاء والفراغ من مشاغل الدنيا، ولذا كان في التلاوة ليلاً ميزة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ المزمل: ٦ .

﴿ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ ﴾: «أي الصلاة فيه بعد النوم... أقرب إلى تحصيل مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره، وهذا بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذا المقصود»[٥].

ولقد رسم لنا الصحابة منهجاً في تدبر القرآن، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

(٤) التفسير القيم ص٤٤٣-٤٤٤.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص٨٩٣.

(كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن)[١].

قال الحسن البصري: «أنزل القرآن ليتدبر ويعمل به،فاتخذوا تلاوته عملاً»[٢].

(٣) دوام ذكر الله عز وجل على كل حال:

باللسان والقلب، فنصيب المؤمن من حياة القلب وطمأنينته ومحبته لربه على قدر نصيبه من الذكر.

يقول تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ الرعد: ٢٨، ويقول ﷺ:**(مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت)**[٣].

ويقول ﷺ:**(إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)**[٤].

يقول ابن القيم: «وقد جعل الله لكل شيء سبباً، وجعل سبب المحبة دوام الذكر، فمن أراد محبة الله عز وجل فليلهج بذكره... وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف حال السمك إذا فارق الماء؟... والذكر قوت القلوب والروح، فإذا فقده

(١) أخرجه أحمد (٢٣٤٨٢) وصحح إسناده الأرنؤوط.

(٢) انظر: تهذيب مدارج السالكين ص(٢٤٣). وفيه مزيد بيان لما تضمنه القرآن مما فيه صلاح القلب.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٠٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قُوْته، وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي، وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد هذا الغداء لسقطت قوتي»[(١)].

ويقول: «إذا حملت القلب هموم الدنيا وأثقالها، وتهاونت بأوراده التي هي قوته وحياته، كنت كالمسافر الذي يحمل دابته فوق طاقتها، ولا يوفيها علفها، فما أسرع أن تقف به»[(٢)].

وأقل ذلك أن يحافظ المسلم على الأذكار أدبار المكتوبات، وأذكار الصباح والمساء، وأذكار الأحوال المتنوعة، وهي مدونة في كتب السنة والأذكار.

وليحذر المسلم من الأوراد المخترعة، فكثير منها لا يخلو من مخالفة للشريعة، ولو سلمت فالتزام ما لم يرد؛ وما يتضمنه ذلك من تفضيله على الوارد، مسلك غير محمود العاقبة، وفيه فتح لباب البدعة على مصراعيه، فعليك بالاتباع، واحذر الابتداع، ففيما صح من سنة إمام المتقين، وقدوة الذاكرين، غنية وعصمة.

«وأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده؛ لأن ذكر القلب يثمر المعرفة، ويهيج المحبة، ويثير الحياء، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويردع عن التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا

(١) الوابل الصيب ص (٩٢، ٩٣).

(٢) الفوائد ص٧٦.

يوجب شيئًا من تلك الأثمار، وإن أثمر شيئًا منها فثمرة ضعيفة»[(١)].

(٤) طلب العلم الشرعي، وحضور مجالس العلماء وحلقهم:

فإن العبد كلما ازداد علمًا ازداد خشية لله وتعظيمًا له: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ فاطر: ٢٨.

وتأمل المقابلة بين أصحاب القلوب المريضة والقاسية، والذين أوتوا العلم المخبتين في قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الحج: ٥٣ - ٥٤.

يقول ابن القيم: «وأما العلماء بالله وأمره فهم حياة الوجود وروحه، لا يستغنى عنهم طرفة عين.. فالعلم للقلب مثل الماء للسمك، إذا فقده مات. فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها، وكنسبة سمع الأذن، وكنسبة كلام اللسان إليه، فإذا عدمه كان كالعين العمياء، والأذن الصماء، واللسان الأخرس؛ ولهذا يصف الله أهل الجهل بالعمى والصمم والبكم، وذلك صفة قلوبهم حيث فقدت العلم النافع، فبقيت على عماها وصممها وبكمها ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الإسراء: ٧٢، والمراد عمى القلب في الدنيا»[(٢)].

(١) الوابل الصيب ص١٩٠. ويراجع هذا الكتاب في فوائد الذكر.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ١٢١.

وطالب العلم متى خلصت نيته، كان ذلك طريقه إلى الربانية ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ آل عمران: ٧٩.

يقول ابن تيمية: «كثير من طلبة العلم ليس مقصودهم به إلا تحصيل رياسة أو مال، ولكل امرئ ما نوى. وأما أهل العلم والدين الذين هم أهله، فهو مقصود عندهم لمنفعته لهم، وحاجتهم إليه في الدنيا والآخرة ... ؛ ولهذا تجد أهل الانتفاع به يزكون به نفوسهم، ويقصدون فيه اتباع الحق لا اتباع الهوى ويسلكون فيه سبيل العدل والإنصاف، ويحبونه ويلتذون به، ويحبون كثرته وكثرة أهله، وتنبعث هممهم على العمل به وبموجبه ومقتضاه»[1].

ومن صفة العالم فيما بينه وبين الله عز وجل «أن يكون لله شاكراً وله ذاكراً، دائم الذكر بحلاوة حب المذكور، منعم قلبه بمناجاة الرحمن، يعد نفسه مع شدة اجتهاده خاطئاً مذنباً، ومع الدؤوب على حسن العمل مقصراً، لجأ إلى الله عز وجل فقوى ظهره، ووثق بالله فلم يخف غيره، مستغن بالله عن كل شيء، ومفتقر إلى الله في كل شيء، أنسه بالله وحده، ووحشته ممن يشغله عن ربه، إن ازداد علماً خاف توكيد الحجة، مشفق على ما مضى من صالح عمله أن لا يقبل منه، همه في تلاوة كلام الله، الفهم عن مولاه، وفي سنن الرسول ﷺ الفقه؛ لئلا يضيع ما أمر به، متأدب بالقرآن والسنة، لا ينافس أهل الدنيا في عزها، ولا يجزع من ذلها، يمشي على الأرض هوناً بالسكينة والوقار، ومشتغل قلبه بالفهم والاعتبار، إن فرغ قلبه عن ذكر الله

(١) منهاج السنة النبوية (٨/ ٢٠٩-٢١٠).

فمصيبة عنده عظيمة، وإن أطاع الله عز وجل بغير حضور فهم فخسران عنده مبين ... قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩»[1].

وليحذر طالب صلاح قلبه؛ من الوقيعة في العلماء واستنقاصهم، وتتبع عوراتهم، فإن هذا باب هلكة، وسبيل ضلال، وقد قيل: إن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أعراض منتقصيهم معلومة، ومن أطلق لسانه في العلماء بالثلب، ابتلاه الله قبل موته بموت القلب.

ومن أراد الانتفاع بمجالس أهل العلم ومواعظهم، فلا يشتغل بعيوبهم، فيحرم نفسه خيرهم، فإنه: إنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء: شدة الافتقار إليها، والعمى عن عيب الواعظ، فإنه إذا اشتغل به حرم الانتفاع بموعظته، وتذكر الوعد والوعيد[2].

(٥) مطالعة القلب لأسماء الله جل وعلا وصفاته، ومعرفتها:

فمن عرف الله بأسمائه وصفاته، فلا بد أن يحبه ويخشاه ويرجوه ويتوكل عليه وينيب إليه ويخلص دينه له.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ الأعراف: ١٨٠.

(١) كتاب أخلاق العلماء للآجري ص ٩٠ ـ ٩١.

(٢) انظر: للأشياء الثلاثة تهذيب مدارج السالكين ص٢٣٩.

ويقول ﷺ: **(إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة)**[1].

وإحصاؤها يكون بمعرفة ألفاظها ومعانيها والتعبد لله بمقتضاها.

فمطالعة أسماء الجمال تورث العبد المحبة والشوق.

ومطالعة أسماء الجلال تورثه الخشية والإخبات لربه.

ومن أعمال القلوب التوكل والإحسان والمراقبة، فتأمل قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠.

يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي: «والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع ثقته به وحسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده، وبرحمته يفعل ذلك. ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله والنزول في منزل الإحسان، فقال: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي: يراك في هذه العبادة العظيمة التي هي الصلاة وقت قيامك وتقلبك راكعًا وساجداً، وخصها بالذكر، لفضلها وشرفها، ولأن من استحضر فيها قرب ربه خشع وذل وأكملها... ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فاستحضار العبد رؤية الله له في جميع أحواله وسمعه لكل ما ينطق به وعلمه بما ينطوي عليه قلبه من الهم والعزم والنيات مما يعينه على منزلة الإحسان»[2].

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦) ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٥٩٩.

ومن مغزى اقتران هذين الاسمين ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أن من تفكر فيهما أوجب له ذلك صدق التوكل على الله، إذ الاعتماد لا يصلح إلا على قوي قادر لا يغلب، ومع ذلك رحيم بعباده، هو حَسْبُ من توكل عليه.

(٦) مطالعة سيرة النبي ﷺ:

فإنه ﷺ الأسوة، قال الله عز وجل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ الأحزاب: ٢١، وهو صاحب الخلق العظيم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم: ٤.

والعيش مع السيرة النبوية ومواقفها العظيمة، لاسيما المواقف التي نزل فيها قرآن يتلى، مع تدبر الآيات له أثر عظيم في إحياء القلب وتقوية الإيمان.

وقصص الأنبياء عمومًا فيها عبرة لأصحاب البصائر، ولذا قص الله في القرآن مواقف إيمانية لعدد من أنبيائه، وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ يوسف: ١١١.

وخير من ينتفع بسيرته بعد الأنبياء،صحابة نبينا محمد ﷺ، فإنهم الجيل الفريد، الذي رباه النبي ﷺ على عينه ، ثم سير الصالحين، والعلماء الربانيين الذين ساروا على نهج السلف في العلم والعمل.

ففي أخبار أولئك القوم نماذج تحتذى، في التعلم والتعبد، والزهد والورع، والإخلاص والخشية، والتوكل والإنابة، والاستقامة والاتباع، والجهاد وبذل المهج والأموال في سبيل الله.

وتلك الأخبار تشحذ الهمم الكليلة، وتقوي العزائم الفاترة، وتعلو بمطالعتها القدوة، وتنقشع عن القلب الغمة، فيبصر ميدان السباق، وقد سار فيه الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون، فتزول وحشة التفرد عن أبناء الزمان،ما دام الرفقة أولئك، وحسن أولئك رفيقا.

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ النساء: ٦٩.

(٧) اجتناب المعاصي ومفسدات القلب:

وقد أفاض ابن القيم في ذكر الآثار السيئة للمعاصي وذكر «أن الذنوب والمعاصي تضر، ولا شك أن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان»[(١)].

ثم فصل رحمه الله أضرار المعاصي بالقلب والبدن، فكان مما ذكره من ضررها بالقلب ما يأتي:

(أ) أنها تحرم القلب العلم؛ لأن العلم نور تطفؤه المعاصي.

(ب) أنها إذا تكاثرت، طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين، كما قال الحسن البصري في قوله: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ المطففين: ١٤ .

«هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب، وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير

(١) الجواب الكافي ص٨٠.

طبعًا وقفلاً وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف. فلا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه».

(جـ) أنها تطفئ من القلب نار الغيرة، التي هي لحياته كالحرارة لحياة البدن، فإن الغيرة حرارة القلب التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة، كما يخرج الكير خبث الذهب.

(د) أنها تذهب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب وأصل كل خير.

(هـ) أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله.

(و) أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، وتعوقه وتوقفه إن لم ترده إلى الوراء. والقلب إنما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض القلب، ضعف سيره، وانقطع في طريقه[(١)].

وأما مفسدات القلب فقد ذكر ابن القيم أنها خمسة: كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله من مال أو جاه أو صورة، والشبع المفرط، وكثرة النوم، ويزيد بعضهم فضول النظر، وفضول الكلام.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب ذلك أن القلب يسير إلى الله عز وجل والدار الآخرة، ويكشف عن طريق الحق ونهجه، وآفات النفس والعمل، وقطاع الطرق، بنوره وحياته وقوته وصحته وعزمه،

(١) انظر: الجواب الكافي من ص٩٧ ــ١٥٣، ففيه كلام كثير النفع عن عقوبات الذنوب والمعاصي.

وسلامة سمعه وصحته وبصره، وغيبة الشواغل والقواطع عنه.

وهذه الخمسة تطفئ نوره، وتعور عين بصيرته، وتثقل سمعه ـ إن لم تصمه وتبكمه ـ وتضعف قواه كلها، وتوهن صحته، وتفتر عزيمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى ورائه.

ومن لا شعور له بهذا فميت القلب، وما لجرح بميت إيلام، فهي عائقة له عن نيل كماله، قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له، وجعل نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذته في الوصول إليه»[1].

(٨) مراقبة العبد ربه جل جلاله كأنه يراه .

«وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء ما لا يحصل بدونها، فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها وعمودها الذي قيامها به، ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب، وفروعها كلها في كلمة واحدة، وهي قوله في الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه» فتأمل كل مقام من مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجد هذا أصله ومنبعه؟»[2].

(١) تهذيب مدارج السالكين ص (٢٤٤). وقد فصل رحمه الله في تأثير هذه المفسدات، بكلام مفيد من ص (٢٤٥ ـ ٢٤٩) .

(٢) إعلام الموقعين (٤/ ٢٠٣).

المبحث الرابع

وجوب لزوم السنة في طريق إصلاح القلب

من خلال ماتقدم من مباحث يظهر بجلاء أن أعمال القلوب من أصول الإيمان وقواعد الدين، وما دامت كذلك فمحال ألا يكون في الكتاب والسنة ما يشفى ويكفي في علمها وطريق تحصيلها.

ولما بعدت الشقة بين كثير من الناس وبين تدبر القرآن والفقه في السنة، دعت الحاجة إلى إبراز تلك المعاني العظيمة تبصرة وذكرى.

والكلام في تلك الأصول وطلب تحصيلها يجب أن يكون مستقى من القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين، موافقاً للهدي النبوي، وما كان عليه سلف الأمة.

فمحبة الله التي هي رأس أعمال القلوب مقتضاها اتباع السنة: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ آل عمران: ٣١.

وأهل الرجاء لله هم أهل التأسي بنبيه ﷺ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ﴾ الأحزاب: ٢١.

والتقوى التي هي جماع صلاح القلب والجوارح سبيلها اتباع الصراط المستقيم ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الأنعام: ١٥٣

قال مجاهد: «السبل:البدع والشبهات»[1].

وفي اتباع الوحيين عصمة: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ التكوير: ٢٦ - ٢٨. ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة: ٢ ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الحشر: ٧.

وقد قال ﷺ: **(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو رد)**[2]، وهذا الحديث ميزان لما عليه الناس من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته: **(خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة)**[3].

يقول ابن تيمية: «فمن بنى الكلام في العلم الأصول والفروع على الكتاب والسنة والآثار المأثورة عن السابقين، فقد أصاب طريق النبوة.

وكذلك من بنى الإرادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال البدنية على الإيمان والسنة والهدى الذي كان عليه محمد ﷺوأصحابه، فقد أصاب طريق النبوة، وهذه طريق

(١) الدارمي (١/ ٦٨).
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).
(٣) أخرجه مسلم رقم (٨٦٧).

أئمة الهدى»[1].

وربما التبس على بعض الناس الحق بالباطل مع كثرة الاختلاف وتعدد الآراء، والمخرج من ذلك أرشد إليه النبي ﷺ حين قال: **(أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم والمحدثات، فإن كل محدثة بدعة)**. **وفي لفظ: (وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة)**[2].

وحسن النية والصدق في طلب الخير ليسا كفيلين بالفلاح ما لم يقرنا بالاتباع، فعن عمرو بن يحيى قال: (سمعت أبي يحدث عن أبيه قال: كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة، فإذا خرج، مشينا معه إلى المسجد؛ فجاءنا أبو موسى الأشعري، فقال: أخرج عليكم أبو عبدالرحمن بعد؟ قلنا: لا، فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج، قمنا إليه جميعًا، فقال له أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن، إني رأيت في المسجد آنفًا أمراً أنكرته، ولم أر والحمد لله إلا خيراً. قال: فما هو؟. فقال: إن عشت تراه، قال: رأيت في المسجد قومًا حلقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل، في أيديهم حصى، فيقول كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول:

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٣٦٣.
(٢) أخرجه أحمد (١٧٢٧٤) والترمذي (٢٦٧٦) وصححه الألباني.

هللوا مائة، فيهللون مائة، فيقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة. قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئًا انتظار رأيك أو انتظار أمرك؟ قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم، وضمنت أن لا يضيع من حسناتهم شيء. ثم مضى ومضينا معه، حتى أتى حلقة من تلك الحلقات، فوقف عليهم، فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح، قال: فعدوا سيئاتكم، فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد، ما أسرع هلكتكم. هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر. والذي نفسي بيده، إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد أو مفتتحوا باب ضلالة. قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير. فقال: وكم من مريد للخير لن يصيبه. إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وأيم الله، لا أدري لعل أكثرهم منكم، ثم تولى عنهم، فقال عمرو بن سلمة: رأيت عامة أولئك يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج)[1].

هذا وإن بعض من يسلك الطرق المبتدعة يحتج بما يجده في ذلك من أعمال قلبية، وهذا ليس دليلاً على صحة ذلك الطريق. بل المعول في ذلك على موافقة السنة، وقد يكون ما يجده فتنة واستدراجًا.

ومن أنكر هذا فليتأمل حال الخوارج، الذين جاءت الآثار بذمهم، والأمر بقتلهم، وأنهم كلاب النار، وأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من

(١) الدارمي (٢٠٤).

الرمية. مع أنهم وصفوا في النصوص بأنهم يحقر المرء صلاته عند صلاتهم، وقراءته عند قراءتهم، ومع ما كانوا عليه في عصر الصحابة من عظيم التعبد وإظهار الخشية والبكاء عند تلاوة القرآن.

ولله در العالم الرباني الأوزاعي حين قال: «من ابتدع بدعة خلاه الشيطان والعبادة، وألقى عليه الخشوع والبكاء؛ لكي يصطاد به»[1]. ولكي يثبت على بدعته، فيكون من الأخسرين أعمالاً، ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف: ١٠٤.

وقد ورد أن ابن عباس قيل له: إن يهود لا توسوس في صلاتها. فقال: (ما يصنع الشيطان بقلب خراب)[2].

وربما اغتر بعض سالكي الطرق البدعية بما يجدونه من خوارق يظنونها كرامات، تدل على سلامة طريقهم.

وهذا خطأ بين؛ فالخوارق ليست دليلاً على ولاية من جرت له. ألا ترى أن المسيح الدجال ثبت في النصوص النبوية أنه تجرى على يده خوارق عظيمة، ولم يكن ذلك دليلاً على إسلامه ولا ولايته. وقد شاهد الناس خوارق تجري على أيدي وثنيين كفار، وسحرة ومشعوذين.

(١) الحوادث والبدع ص١٤٩.

(٢) الأثر أورده ابن القيم في الوابل الصيب منسوبًا لابن عباس. وذكر محققه الأنصاري أنه ورد معناه عن الأعمش عند أبي نعيم في الحلية، وعن العلاء بن زياد عند أحمد في كتاب الزهد. الوابل الصيب ص٥٨.

فإن قيل: فكيف يميز الأولياء وكراماتهم عن ذوي الأحوال الشيطانية؟.

فالجواب: أن أولياء الله عرفنا بهم ربنا بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ يونس: ٦٢ - ٦٣. فأهل الإيمان والتقوى هم أولياء الله، قد تقدم أن القرآن دل على أن التقوى تنال باتباع الصراط المستقيم وتجنب سبل الشيطان وهي البدع والشبهات. وليس من شرط الولاية جريان الخوارق[1].

(١) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ١٧٢.

المبحث الخامس

إنكار منكرات القلوب وخطأ التثبيط عن الخير حذر الرياء

من شرط المنكر الذي يحتسب فيه أن يكون ظاهراً من غير تجسس، وقد دل قوله ﷺ: (**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده...**) الخ[1]. على أن الإنكار متعلق بالرؤية، فلو كان مستوراً لم يره، لم يتعرض له[2].

وبناء على هذا، فليس لأحد الإنكار في المعاصي القلبية، كالرياء والحسد والكبر وغيرها؛ لخفائها.

وربما عمد بعض الناس إلى النهي عن أمر مشروع أو التثبيط عنه بمجرد زعمه أن ذلك رياء وتشكيكه في مقاصد القائمين عليه، وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا بوجوه أربعة، فقال رحمه الله:

«**أحدها**: أن الأعمال المشروعة لا ينهى عنها خوفاً من الرياء، بل يؤمر بها وبالإخلاص فيها. ونحن إذا رأينا من يفعلها أقررناه، وإن جزمنا أنه يفعلها رياء. فالمنافقون الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء: ١٤٢.

(١) أخرجه مسلم (٤٩).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٥٤).

فهؤلاء كان النبي ﷺ والمسلمون يقرونهم على ما يظهرونه من الدين، وإن كانوا مرائين، ولا ينهونهم عن الظاهر؛ لأن الفساد في ترك إظهار المشروع أعظم من الفساد في إظهاره رياء، كما أن فساد ترك إظهار الإيمان والصلوات أعظم من الفساد في إظهار ذلك رياء، ولأن الإنكار إنما يقع على الفساد في إظهار ذلك رياء الناس.

الثاني: لأن الإنكار إنما يقع على ما أنكرته الشريعة، وقد قال رسول الله ﷺ: **(إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أن أشق بطونهم)**[1].

وقال عمر بن الخطاب: (من أظهر لنا خيراً أحببناه، ووالياناه عليه، وإن كانت سريرته بخلاف ذلك، ومن أظهر لنا شراً أبغضناه عليه، وإن زعم أن سريرته صالحة).

الثالث: أن تسويغ مثل هذا يفضي إلى أن أهل الشر والفساد ينكرون على أهل الخير والدين إذا رأوا من يظهر أمراً مشروعاً مسنوناً،قالوا: هذا مراء، فيترك أهل الصدق والإخلاص إظهار الأمور المشروعة؛ حذراً من لمزهم وذمهم، فيتعطل الخير، ويبقى لأهل الشر شوكة يظهرون الشر، ولا أحد ينكر عليهم، وهذا من أعظم المفاسد.

الرابع: أن مثل هذا من شعائر المنافقين... قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ التوبة: ٧٩،

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤).

فإن النبي ﷺ لما حض على الإنفاق عام تبوك، جاء بعض الصحابة بصرة كادت يده تعجز من حملها، فقالوا: هذا مراء، وجاء بعضهم بصاع، فقالوا: لقد كان الله غنياً عن صاع فلان»[1].

وفي الجملة «فإن الله سبحانه لم يجعل أحكام الدنيا على السرائر، بل على الظواهر والسرائر تبع لها، وأما أحكام الآخرة فعلى السرائر والظواهر تبع لها»[2].

وإذا لم يكن لأحدٍ الإنكار في معاصي القلوب، فإن هذا يزيد العبء والمسؤولية على الفرد في إصلاح قلبه، فعلى المتلبس بشيء منها تفقد قلبه ومعالجة نفسه وتزكيتها.

هذا وإن آفات الطريق كثيرة، والاشتغال بالبحث عنها سبب انقطاع، لكن من عرض له شيء منها وجب عليه التخلص منه.

يقول ابن القيم: «سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ فقال لي: مثل آفات النفس مثل الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها انقطع، ولم يمكنه السفر قط. ولكن لتكن همتك المسير، والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله ثم امض في سيرك.

(١) مجموع الفتاوى ٢٣/ ١٧٤ـ١٧٦.

(٢) إعلام الموقعين ١/ ١٢٩.

فاستحسن شيخ الإسلام (ابن تيمية) ذلك جداً وأثنى على قائله»[1].

فهناك فرق بين الوساوس والخطرات بالرياء التي ترد على المخلص وهو في طاعته لربه، وبين من تستقر عنده تلك الخطرات فيصير مقصوده رياء الخلق، فالأول يمضي ولا يلتفت، والثاني يحتاج إلى علاج نفسه مع الاستمرار في العمل الصالح، والاجتهاد في تصحيح النية.

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٣٣.

الخاتمة

أحمد الله عز وجل على إتمام هذا الكتاب، الذي تضمن من أدلة الكتاب والسنة وكلام علماء الأمة ما يبرز حقيقة غابت عن أذهان الكثيرين، فقل التذكر فيها والتذاكر، مع مسيس الحاجة إليها علماً وعملاً.

أخي المسلم... أخي طالب العلم...

لقد فتح لك باب رشد، وسبيل نجاة، وقامت عليك الحجة، واتضحت لك المحجة، فسر ولا تلتفت، واستعن بربك ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ النمل: ٧٩ ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ إبراهيم: ١٢، وها أنت عرفت فالزم.

وإني أعيذك أن تكون ممن لا يؤثر فيه الوعظ، إلا بمقدار سماعه، أو النظر فيه،كغيث وقع على صفوان.

واعلم أن أعظم زكاة العلم ربانية القلب ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ آل عمران: ٧٩.

ومن ركن إلى عوائده، وقعدت به همته عن طلب صلاح قلبه، فليحذر العقوبة؛ فإن الله يحول بين المرء وقلبه.

يقول ابن القيم في فوائد قصة توبة كعب بن مالك ﷺ: (ومنها أن الرجل إذا حضرت له فرصه القربة والطاعة، فالحزم كل الحزم في انتهازها، والمبادرة

إليها. والعجز في تأخيرها والتسويف بها، ولاسيما إذا لم يثق بقدرته، وتمكنه من أسباب تحصيلها؛ فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض قلما ثبتت، والله سبحانه يعاقب من فتح لها باباً من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يمكنه بعد من إرادته عقوبة له، فمن لم يستجب لله ورسوله إذا دعاه، حال بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يمكنه الاستجابة بعد ذلك، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ الأنفال: ٢٤.

وقد صرح بهذا في قوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ الأنعام: ١١٠.

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴾ الصف: ٥.

وقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ التوبة: ١١٥.

وهو كثير في القرآن)[1].

واعلم يا أخي أنك ستقف بين يدي من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فيحاسبك عما في صدرك .

﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ الطارق: ٩.

(١) زاد المعاد ٣/ ٥٧٤. وانظر: الفوائد ص١٣٦، تهذيب مدارج السالكين ص٤٨.

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ العاديات: ٩ - ١١.

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ الزمر: ٧.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝١٨ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ غافر: ١٨ - ١٩.

وإن سمت همتك إلى السعي في إصلاح قلبك، وسرت إلى الله قلباً وبدناً، فأبشر بالتثبيت والهداية، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ النساء: ٦٦، وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ... ﴾ العنكبوت: ٦٩، وما هي إلا مرارة مصابرة ساعة، يعقبها روح نعيم أبد، فإذا ذاق المؤمن حلاوة الإيمان، ولذة الطاعة، وأنس القرب من الرحمن، لم يأس على فائت دنيا، ولم يعدل بسبيل الهداية سبلاً،وقال في الدنيا قبل الآخرة: «الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله».

وعليك بالتسديد والمقاربة، والقصد القصد تبلغ مناك، يقول ﷺ: **(إن لكل شيء شرَّة، ولكل شرة فترة، فإن صاحبها سدد وقارب، فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع، فلا تعدوه)**[1].

(١) أخرجه أحمد (٦٤٧٧) والترمذي (١٩٩٥) وصححه الألباني.

والزم سنة نبيك محمد ﷺ، وما كان عليه سلف الأمة، من الهدي الظاهر والباطن. واحذر البدع، فإن كل بدعة في الدين ضلالة، ولا طريق إلى الله إلا باتباع سنة رسوله ﷺ، ولا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، موافقاً لسنة نبيه ﷺ.

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ الكهف: ١١٠

وفقني الله وإياك للعلم النافع والعمل الصالح، ورزقنا الإيمان الحق، والقلوب السليمة، والحمد لله أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

فهرس المراجع

(١) أحكام القرآن الكريم (الفاتحة، البقرة)، لمحمد بن صالح العثيمين، جمع عبدالكريم المقرن ط. الأولى ١٤١٥هـ. دار طويق ـ الرياض.

(٢) الفوائد لابن قيم الجوزية،ت: محمد عثمان الخشت، ط. الأولى ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر، لأحمد بن حجر الهيتمي، ط. ١٤٠٢هـ، دار المعرفة، بيروت.

(٤) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، ت: إسماعيل الأنصاري، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء – السعودية.

(٥) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. وضعه محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٦) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن قيم الجوزية، ت: عبيدالله بن غالية، ط. الأولى ١٤٠٧هـ. دار الكتاب العربي. بيروت.

(٧) الإيمان، لابن تيمية.

(٨) العبودية، لابن تيمية، ط. الخامسة ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

(٩) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، لابن رجب الحنبلي، ت:أحمد الشريف، ط. الأولى ١٤١١هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

(١٠) اختيار الأولى شرح حديث اختصام الملأ الأعلى، لابن رجب الحنبلي.

(١١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية. ت ناصر العقل. ط. الأولى، ١٤٠٤هـ. توزيع مكتبة الرشد، الرياض.
(١٢) الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي، الطبعة الأخيرة، ١٣٧٨هـ، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
(١٣) الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق الشاطبي، ت: عبدالله دراز، دار المعرفة، بيروت.
(١٤) الوجيز في أصول الفقه، لعبدالكريم زيدان، ط. الثانية ١٤٠٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
(١٥) التذكرة بأذكار الحج والعمرة وأدعية القرآن والسنة، لأحمد محمد إسماعيل.
(١٦) التفسير القيم للإمام ابن القيم. جمعه محمد إدريس الندوي، دارالعلوم الحديثية، بيروت.
(١٧) الباعث على إنكار البدع والحوادث، لأبي شامة الشافعي. ت: مشهور حسن سلمان. ط. الأولى ١٤١٠هـ. دار الراية، الرياض.
(١٨) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية. تعليق: محمود فايد، نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء، السعودية.
(١٩) القول المفيد على كتاب التوحيد، لمحمد بن صالح العثيمين، ط.

الأولى ١٤١٥هـ، دار العاصمة، الرياض.
(٢٠) المحجة في سير الدلجة، لابن رجب الحنبلي، ت: يحيى غزاوي، ط. الأولى ١٤٠٤هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت.
(٢١) الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني مع شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، ترتيب وتأليف أحمد عبدالرحمن البنا، دار الشهاب، القاهرة.
(٢٢) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله القرطبي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(٢٣) الحوادث والبدع لابن وضاح.
(٢٤) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن قيم الجوزية. ت: حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.
(٢٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية، ت: محيي الدين عبدالحميد.
(٢٦) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت.
(٢٧) ترتيب أحاديث صحيح الجامع الصغير وزيادته على الأبواب الفقهية، رتبه وبوبه عوني الشريف، ط الأولى، مكتبة المعارف، الرياض.
(٢٨) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، ت. عبدالرحمن اللويحق، ط. الثانية ١٤٢١هـ، مكتبة الرشد، الرياض.

(٢٩) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، لسليمان بن عبدالله، ط السابعة ١٤٠٨هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
(٣٠) تهذيب مدارج السالكين، لابن القيم، هذبه عبدالمنعم العزي، ط. وزارة العدل بالإمارات العربية المتحدة.
(٣١) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، ت: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، ط. الأولى١٤١١هـ. مؤسسة الرسالة.
(٣٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني.
(٣٣) دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، ت. محمد السيد الجليند. ط. الثانية ١٤٠٤هـ. مؤسسة علوم القرآن، دمشق.
(٣٤) روضة الطالبين وعمدة المفتين للإمام النووي ط. الثانية، ١٤٠٥هـ. المكتب الإسلامي، بيروت.
(٣٥) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية. ت: شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط. ط. الثالثة ١٤٠٢هـ، مؤسسة الرسالة. بيروت.
(٣٦) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السئ على الأمة، لمحمد بن ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.
(٣٧) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، لمحمد

ناصرالدين الألباني، المكتب الإسلامي، مكتبة المعارف.
(٣٨) صيد الخاطر،لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت.
(٣٩) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، لمحمد بن ناصرالدين الألباني ط٣، ١٤٠٢هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
(٤٠) صحيح الترغيب والترهيب للحافظ المنذري، اختيار وتحقيق محمد ناصرالدين الألباني، ط. الأولى ١٤٠٢هـ. المكتب الإسلامي، بيروت.
(٤١) طرح التثريب في شرح التقريب، لزين الدين العراقي. دار إحياء التراث العربي.
(٤٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، لشمس الحق العظيم آبادي، ط. الثالثة ١٣٩٩هـ. دار الفكر بيروت.
(٤٣) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن قيم الجوزية. ت. محمد عثمان الخشت. ط. الأولى ١٤٠٥هـ. دار الكتاب العربي، بيروت.
(٤٤) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لعزالدين بن عبدالسلام السلمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
(٤٥) قاعدة في المحبة، لابن تيمية، ت: رشاد سالم، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.
(٤٦) كتاب أخلاق العلماء، لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري. اعتنى

به أحمد حاج عثمان، ط. الأولى، ١٤٢٦هـ. دار أضواء السلف.
(٤٧) لسان العرب، لابن منظور، تحقيق نخبة من الأساتذة. دار المعارف.
(٤٨) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف. لابن رجب، حققه ياسين السواس ، ط. الخامسة، دار ابن كثير.
(٤٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن ابن محمد بن قاسم، طبع بإشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين.
(٥٠) مختصر الفتاوى المصرية.
(٥١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية ط. الأولى، ١٤٠٣هـ. دار الكتاب العربي، بيروت.
(٥٢) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد، لعبد الرحمن بن سعدي ط. الأولى ١٤١٨هـ. دار ابن الجوزي، السعودية.
(٥٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن قيم الجوزية. ط. الثالثة ١٣٩٩هـ. مكتبة حميدو، الاسكندرية.
(٥٤) مشكاة المصابيح، للإمام التبريزي ت: محمد ناصرالدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي.
(٥٥) كتاب الزهد، للإمام أحمد بن حنبل، ط. ١٣٩٨هـ دار الكتب العلمية بيروت.
(٥٦) تعظيم قدر الصلاة، لمحمد بن نصر المروزي تحقيق: عبدالرحمن الفريوائي، ط. ١٤٠٦هـ، مكتبة الدار في المدينة المنورة.

(٥٧) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط. ١٤٠٦هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

فهرس الموضوعات

الموضوع	ص
المقدمة	٥-١٠
الفصل الأول الطاعات والمعاصي القلبية	١١-٢٦
المبحث الأول: الطاعات القلبية	١٣
المطلب الأول: حكمها وأمثلتها	١٣
المطلب الثاني: درجات الناس في القيام بها	١٦
المطلب الثالث: واقع كثير من الناس تجاهها	١٧
المبحث الثاني: المعاصي القلبية	١٩
المطلب الأول: أقسامها وأمثلتها	١٩

الموضوع	ص
المطلب الثاني: واقع كثير من الناس تجاهها	٢٢
المبحث الثالث: تأثير التفريط في القيام بالطاعات القلبية في التلبس بمعاصيها	٢٥
الفصل الثاني عظم قدر الأعمال القلبية	٢٧-٧٢
المبحث الأول: أعمال القلوب ومراتب الدين	٢٩
المطلب الأول: أعمال القلوب والإحسان	٢٩
المطلب الثاني: أعمال القلوب والإيمان	٣٠
المطلب الثالث: أعمال القلوب والإسلام	٣٢
المبحث الثاني: أعمال القلوب ومقاصد الشريعة	٣٥
المبحث الثالث: أهمية العناية بالقلب تحلية وتخلية	٤٠
أولاً: قيام بفرض عيني	٤٠
ثانياً: صلاح الجوارح بصلاح القلب	٤٠
ثالثًا: كثرة نصوص الكتاب في ذكر القلب	٤٢
رابعًا: القلب هو موضع نظر الله	٤٣

الموضوع	ص
خامسًا: العناية بالقلب سبب النجاة	٤٦
سادسًا: الآفات القلبية سبب الخسران	٥٠
سابعًا: صلاح القلب وحلاوة الإيمان	٥٣
ثامنًا: إهمال القلب و سوء الخاتمة	٥٦
تاسعًا: صلاح القلب وبركة العمل	٥٨
عاشراً: دوام آثار معاصي القلب	٦٠
حادي عشر: أعمال القلوب والآفات	٦٠
ثاني عشر: بين أسر القلب وأسر البدن	٦١
ثالث عشر: عرض الفتن على القلوب	٦٣
المبحث الرابع: الارتباط بين الظاهر والباطن	٦٦
الفصل الثالث القيام بالأعمال القلبية علمًا وعملاً	٧٣-١١٠
المبحث الأول: حكم تعلم عمل القلب	٧٥
المبحث الثاني: كيفية القيام بالأعمال القلبية	٧٧

الموضوع	ص
المبحث الثالث: نبذة في وسائل إصلاح القلب	٨٠
الاستعانة بالله	٨١
تلاوة القرآن بالتدبر	٨٦
دوام ذكر الله باللسان والقلب	٩٠
طلب العلم الشرعي	٩٢
مطالعة القلب لأسماء الله وصفاته	٩٤
مطالعة سيرة النبي ﷺ وسائر الأنبياء والصالحين	٩٦
اجتناب المعاصي ومفسدات القلب	٩٧
المبحث الرابع: وجوب لزوم السنة في طريق إصلاح القلب	١٠٠
المبحث الخامس: إنكار منكرات القلوب وخطأ التثبيط عن الخير حذر الرياء	١٠٦
الخاتمة	١١١
فهرس المراجع	١١٥
فهرس الموضوعات	١٢١